المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مَوْسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورةُ الفُرقانِ

(المجلَّدُ العِشرونَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفُرقانِ

سُورةُ الفُرقانِ

سورةُ الفُرقانِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفرقان).[1]

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَمِعتُ هِشامَ بنَ حَكيمٍ يقرأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فاستمعتُ لِقراءتِه، فإذا هو يقرأُ على حُروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ اللهِ - ﷺ -، فكِدتُ أُساوِرُه[2] في الصَّلاةِ، فتصبَّرتُ حتى سَلَّمَ، فلبَّبتُه[3] بردائِه، فقلتُ: مَن أقرأَك هذه السُّورةَ التي سمِعتُك تقرأُ؟ قال: أقرأَنيها رسولُ اللهِ - ﷺ -. فقلتُ: كذَبْتَ؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - أقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها! فقال رسولُ اللهِ - ﷺ - لهشامٍ: اقرأْ، فقرأَ، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -:

---

(1) سُمِّيت سورةَ الفُرقانِ؛ لأنَّ في فاتحتِها ذِكرَ الفُرقانِ؛ في قَولِه تعالى: نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (340/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (313/18).

(2) أساوِرُه: أي: أُواثِبُه وأقاتِلُه.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (420/2).

(3) فلَبَّبْتُه: أي: جَمعتُ ثيابَه عند نَحْرِه ثمَّ جرَرْتُه.
يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (296/7).

كذلك أُنزِلَت. ثمَّ قال: اقرأْ يا عُمَرُ، فقرأتُ، فقال رسولُ الله – ﷺ –: كذلك أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ،[4] فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه)).[5]

فضائل السورة وخصائصها:

في سورةِ (الفرقان) سجدةُ تلاوةٍ، في قولِه تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [الفرقان: 60].

سورةُ الفُرقانِ مكِّيَّةٌ،[6] وحُكيَ الإجماعُ على ذلك.[7]

---

(4) سَبعةِ أحرُفٍ: اختُلِف في المرادِ بالأحرفِ السبعةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أقربِها: أنَّ المرادَ سبعةُ أوجهٍ مِن الاختلافِ لا يخرُجُ عنها، أو: سبْعُ لُغاتٍ مِن لُغاتِ العَرَبِ، أو: سبعةُ أوجهٍ مِن المعاني المتَّفقةِ بألفاظٍ مختلفةٍ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (1/369)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (1/26)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (1/163)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (1/52).

(5) أخرجه البخاري (4992) واللفظ له، ومسلم (818).

(6) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها نزَلت بالمدينةِ؛ وهي: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ... [الفرقان: 68] إلى قولِه: وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: 70].

وقيل: مَدَنيَّةٌ.

وقيل: مَدَنيَّةٌ، وفيها آياتٌ مَكِّيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/394)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (8/5171)، ((تفسير الماوردي)) (4/130)، ((تفسير القرطبي)) (13/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (18/314).

(7) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبِقَاعي.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/340)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/316).

وعزا القرطبيُّ القولَ بأنَّها مكيَّةٌ إلى الجُمهورِ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (13/1).

مِن أبرزِ المَقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ الفُرقانِ:

1- التَّنويهُ بالقُرآنِ، وإثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنَزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ دلائِلِ صِدقِه، والتَّنويهُ بالذين اتَّبَعوه.

2- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه، والتَّسْريةُ عنه.

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الفُرقانِ:

1- تمجيدُ اللهِ تعالى والثَّناءُ عليه، ووَصفُه بصِفاتِ الإلهيَّةِ والوَحدانيَّةِ فيها، واتِّخاذُ المُشرِكينَ مع ذلك آلهةً مِن دُونِه تعالى مخلوقةً مَوصوفةً بالعَجزِ.

2- حِكايةُ بَعضِ أقوالِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم حولَ القُرآنِ وحولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الرَّدِّ عليهم، ودَحْضِ شُبُهاتِهم.

3- المُقارنةُ بيْنَ مَصيرِ المُشرِكينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم، وبينَ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمؤمِنينَ.

4- ذِكرُ جانِبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم.

5- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِنَ المُشرِكينَ مِن تَطاوُلٍ عليه، وتَكذيبٍ له.

6- الحديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

7- عَرضُ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ، وأخلاقِهم، وعبادتِهم لرَبِّهم، ودُعائِهم له، وتضَرُّعِهم إليه.

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (1-3)

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2)
وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا
يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

غريب الكلمات:

تَبَارَكَ: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ.

الْفُرْقَانَ: أي: كلامَ اللهِ تعالى؛ لِفَرقِه بينَ الحقِّ والباطِلِ، وأصلُه: يدُلُّ على الفَصلِ بيْن شيئَينِ.

نَذِيرًا: أي: مُنذِرًا مخوِّفًا، وأصلُه: يدُلُّ على التَّخويفِ.

فَقَدَّرَهُ: أي: سَوَّاه وهَيَّأه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه.

نُشُورًا: أي: حياةً بعْدَ الموتِ. وأصْلُه: يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه.

تفسير الآيات:

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1)

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ.

أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتت بَرَكاتُه،(8) فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ ببيانِه بيْن الحقِّ والباطِلِ، آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ.(9)

---

(8) ذكر ابنُ القيم (٢/ ٢٥١) أن لفظة ﴿تبارك﴾ جاءت على «بناء السعة والمبالغة؛ كتعالى، وتعاظم، ونحوهما، فجاء بناء ﴿تبارك﴾ على بناء» تعالى «الذي هو دالٌّ على كمال العلوِّ ونهايته، فكذلك ﴿تبارك﴾ دالٌّ على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قول مَن قال مِن السلف: ﴿تبارك﴾: تعاظم».

ثم ذكر أقوال المفسرين في معنى: ﴿تبارك﴾، ثم علَّق عليها بقوله: «وحقيقة اللفظة: أنّ البركة: كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه –تبارك وتعالى–، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنّه فِعل لازم مثل:» تعالى «و» تقدس «و» تعاظم «.

ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه؛ فهو المتعالي المتقدس، فكذلك ﴿تبارك﴾ لا يصح أن يكون معناها: بارك في غيره، وأين أحدهما مِن الآخر لفظًا ومعنىً؛ هذا لازم وهذا متعدٍ؟! فعلمت أنّ من فسر ﴿تبارك﴾ بمعنى: ألقى البركة، وبارك في غيره.

لم يُصِب معناها، وإن كان هذا مِن لوازم كونه متباركًا».

ووجَّه قول الحسن قائلًا: «وبارك من باب: أعطى وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم مِن غير عكس فسَّر مَن فسَّر مِن السلف اللفظة بالمتعدي؛ لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده، أو البركة كلها من قِبَله، وهذا فَرْعٌ على تبارك في نفسه».

(9) قال ابنُ كثير: (الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ نزَّل: فَعَّل، مِن التكرُّرِ والتكثُّرِ، كما قال: وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ [النساء: 136] ؛ لأنَّ الكتُبَ المتقدِّمةَ كانت تنزِلُ جُملةً واحدةً، والقرآنُ نَزَل منجَّمًا مفرَّقًا مفصَّلًا آياتٍ بعدَ آياتٍ، وأحكامًا بعدَ أحكامٍ، وسُوَرًا بعدَ سُوَرٍ، وهذا أشدُّ وأبلغُ، وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزِل عليه، كما قال في أثناءِ هذه السُّورة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا [الفرقان: 32، 33]).

كما قال تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا [الكهف: 1].

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا.

أي: لِيَكونَ محمَّدٌ مُنذِرًا لجميعِ الإنسِ والجنِّ، يحَذِّرُهم عذابَ اللهِ إن لم يُخلِصوا له العبادةَ.[10]

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [الأعراف: 158].

((تفسير ابن كثير)) (92/6).

وقال البِقَاعي: (نزَل مفرَّقًا بحسَبِ المصالحِ؛ فسُمِّيَ لذلك فُرقانًا، ولأنَّه الفارقُ بيْن ملتبِسٍ؛ فلا يدَعُ خفاءً إلَّا بيَّنه، ولا حقًّا إلا أثبته، ولا باطلًا إلَّا نفاه ومحَقَه).

((نظم الدرر)) (330/13).

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن جملةِ البَرَكةِ التي هي مِن صفةِ اللهِ سبحانه وتعالى: أنَّه نزَّل الفرقانَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 11).

(10) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: لِيَكُونَ عائدٌ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزيٍّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (225/3)، ((تفسير ابن جرير)) (394/17)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (5173/8)، ((تفسير الرازي)) (429/24)، ((تفسير القرطبي)) (2/13)، ((تفسير ابن جزي)) (78/2)، ((تفسير الشوكاني)) (71/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (317/18)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 16).

ونسَبَ ابنُ الجوزيّ هذا القولَ للجمهورِ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (311/3).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (394/17)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2660/8).

وممَّن قال: إنَّ الضميرَ يعودُ على القرآنِ، أي: لِيَكونَ القرآنُ نذيرًا: السمرقنديُّ.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (528/2).

قال ابن عطية: (قَوْلُه: لِلْعَالَمِينَ عامٌّ في كلِّ إنسيٍّ وجنِّيٍّ عاصَرَه أو جاء بعْدَه).

((تفسير ابن عطية)) (199/4).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)).[11]

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2)

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: وهو اللهُ الذي له وحْدَه سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، يصَرِّفُ شُؤونَهما ويدبِّرُهما وجميعَ ما فيهما.

كما قال تعالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [فاطر: 13].

وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا.

أي: ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه وَلَدًا؛ لا عيسى، ولا عُزَيرًا، ولا الملائكةَ، ولا غيرَهم مِن خَلقِه.

كما قال تعالى: لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [الإخلاص: 3].

---

(11) رواه البخاري (335) واللفظ له، ومسلم (521).

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ.

أي: ولم يكُنْ لله شريكٌ في مُلكِه وسُلطانِه كما يزعُمُ المُشرِكون.

كما قال تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [سبأ: 22].

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا.

أي: وأوجَد اللهُ كلَّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، فأتقَنَه وهيَّأه لِما يَصلُحُ له، وجعَلَه مُحْكَمًا، لا تفاوُتَ فيه ولا خَللَ، على ما أراد سُبحانَه بحِكمتِه.(12)

كما قال تعالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ [الأنعام: 102].

وقال سُبحانه: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [طه: 50].

وقال تبارك وتعالى: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ [النمل: 88].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [السجدة: 7].

وقال جلَّ جلالُه: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى [الأعلى: 2، 3].

---

(12) قال ابن عطية: (تقديرُ الأشياءِ: هو حَدُّها بالأمكنةِ والأزمانِ والمقاديرِ، والمصلحةِ والإتقانِ).
((تفسير ابن عطية)) (199/4).

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ.

أي: واتَّخذ المُشرِكون من دونِ اللهِ معبوداتٍ مِن الأصنامِ وغيرِها لا تَستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ مخلوقةٌ، بل منها ما هو مَصنوعٌ ومنحوتٌ بأيدي المُشرِكين!

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج: 73].

وقال سُبحانَه: قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات: 95، 96].

وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ أن تدفَعَ عن نفْسِها ضرًّا، ولا أن تجلِبَ لنَفسِها نفعًا.[13]

---

(13) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والشنقيطي.
يُنظر: المصادِرُ السابِقةُ.
قال ابنُ عثيمين: (قولُه: وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا...
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا: لو أرادوا أن يَضُرُّوا أنفُسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدْفَعوا عنها ضَرَرًا ما دفعوا عنها؛ ...
قولُه: وَلَا نَفْعًا يعني: لا يَملِكونَ أن يجُرُّوا لأنفُسِهم نفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفَعوه عن أنفُسِهم...
وإبقاءُ الآيةِ على العُمومِ أولى، يعني: لا يَستطيعونَ شَيئًا لأنفُسِهم، وإذا كانوا لا يَستَطيعونَ ذلك لأنفُسِهم، فمِن بابِ أَولَى لا يَستطيعونَه لعابِدِيهم!).

وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ إماتةَ حَيٍّ، ولا إحياءَ مَيِّتٍ، ولا بَعْثَه بعدَ مَوتِه.

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 28، 29).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (4–6)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
(4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ
السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6)

غريب الكلمات:

إِفْكٌ: أي: كَذِبٌ، وقيل: هو أسوأُ الكذبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُه: يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه.

افْتَرَاهُ: أي: اختلَقَه، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، ويُقالُ: افترى فلانٌ على فلانٍ: إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُه: ما عظُم مِن الكَذِبِ.

وَزُورًا: الزُّورُ: الباطِلُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وقد غلَب على الكَذِبِ، وقيل للكَذِبِ: زورٌ؛ لكونِه مائِلًا عن طريقةِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ.

أَسَاطِيرُ: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ.

اكْتَتَبَهَا: أي: اختَلَقها واستَنسخَها، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

تُمْلَى: أي: تُلقَى وتُقرأُ، مِن قَولِهم: أمليتُ عليك الكِتابَ وأملَلْتُ، وهو إلقاءُ الكلامِ لِمن يكتُبُ ألفاظَه أو يَرويها أو يحفَظُها.

بُكْرَةً: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه.

وَأَصِيلًا: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْنَ العَصرِ إلى اللَّيلِ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ.

أي: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه محمَّدٌ، وليس هو مِن عندِ اللهِ.

كما قال تعالى: وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [ص: 4].

وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ.

أي: وأعان محمَّدًا على اختِلاقِ هذا القُرآنِ أُناسٌ ذَوو قُدرةٍ وكفايةٍ مِن غَيرِ قَومِه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحل: 103].

فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا.

أي: فقد أتى الكُفَّارُ بظُلمٍ وكَذِبٍ ومَيْلٍ عن الحَقِّ، حينَ وصَفوا القُرآنَ بغيرِ صِفتِه، ورَمَوُا النبيَّ بالكَذِبِ على اللهِ.(14)

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5)

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا.

أي: وقال الكُفَّارُ: هذا القُرآنُ عِبارةٌ عن أكاذيبِ الأُمَمِ الأوَّلينَ وقَصَصِهم المسطَّرةِ في كُتُبِهم، استنسَخَها منهم محمَّدٌ.(15)

---

(14) قال ابن كثير: (وهذا الكلامُ -لسخافتِه وكَذِبِه وبُهْتِه منهم- كلُّ أحدٍ يعلَمُ بُطلانَه؛ فإنَّه قد عُلِم بالتواتُرِ وبالضَّرورةِ أنَّ محمدًا رسولَ اللهِ لم يكُنْ يعاني شيئًا من الكتابةِ، لا في أوَّلِ عُمُرِه ولا في آخِرِه، وقد نشأ بيْن أظهُرِهم مِن أوَّلِ مَولدِه إلى أنْ بعَثَه اللهُ نحوًا مِن أربعين سنةً، وهم يَعرِفون مَدخَلَه ومَخرَجَه، وصِدقَه وبِرَّه وأمانتَه، ونزاهتَه مِن الكَذِبِ والفُجورِ وسائرِ الأخلاقِ الرذيلةِ، حتى إنَّهم لم يكونوا يسمُّونَه في صِغَرِه إلى أنْ بُعِث إلَّا الأمينَ؛ لِما يَعلمون مِن صِدقِه وبِرِّه.

فلمَّا أكرَمَه اللهُ بما أكرَمَه به نصَبوا له العداوةَ، ورَمَوه بهذه الأقوالِ التي يعلَمُ كُلُّ عاقلٍ براءتَه منها، وحاروا ماذا يَقذِفونَه به؛ فتارةً مِن إفكِهم يقولون: ساحِرٌ، وتارةً يقولون: شاعِرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارة يقولون: كذَّابٌ!).

((تفسير ابن كثير)) (94/6).

(15) قال السمين الحلبي: (اكْتَتَبَهَا: الافتِعالُ هنا يجوز أَنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكِتابتِها، كافتَصَد واحتَجَم، إذا أَمَر بذلك.

ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان أمِّيًّا لا يقرأُ ولا يَكتُبُ، ويكونَ كقولِهم: استَكَبَّه واصْطَبَّه، أي: سَكَبَه وصَبَّه.

والافتِعالُ مُشْعِرٌ بالتكلُّفِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ، مِن الكَتْبِ: وهو الجَمْعُ، لا مِنَ الكتابةِ بالقلَمِ).

((الدر المصون)) (455/8).

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [الأنفال: 31].

فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

أي: فهذه الأساطيرُ التي اكتَتَبها محمَّدٌ تُقرأُ عليه في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه؛ ليَحفَظَها.

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6)

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَل القُرآنَ المشتَمِلَ على الأسرارِ -كالإخبارِ بالأمورِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ- هو اللهُ الذي يعلَمُ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، ولا يخفَى عليه شَيءٌ.[16]

كما قال تعالى: لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ [النساء: 166].

وقال سُبحانَه: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

---

(16) قال ابنُ جزي: (ويعني بالسِّرِّ: ما أسَرَّه الكُفَّارُ مِن أقوالِهم، أو يكونُ ذلك على وَجهِ التنَصُّلِ والبراءةِ ممَّا نَسَبه الكُفَّارُ إليه مِنَ الافتراءِ، أي: أنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرِّي، فهو العالِمُ بأنِّي ما افترَيتُ عليه، بل هو أنزَلَه عليَّ).
((تفسير ابن جزي)) (78/2).

أي: إنَّ اللهَ لم يَزَلْ يستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها ويرحَمُهم، ومِن رحمتِه بهم أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، ويَقبَلُ منهم التَّوبةَ.(17)

كما قال تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ [الأنفال: 38].

وقال سُبحانَه: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر: 53].

---

(17) قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّه لم يَزَلْ يصفَحُ عن خَلقِه ويرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بعَفوِه، يقول: فلأنَّ ذلك مِن عادتِه في خَلقِه يمهِلُكم أيُّها القائلونَ ما قلْتُم مِن الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلْتُم مِن الكُفرِ).

((تفسير ابن جرير)) (401/17).

وقال ابنُ كثير: (دعاءٌ لهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلمَه عَظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه).

((تفسير ابن كثير)) (94/6).

وقال البِقاعي: (إِنَّهُ كَانَ أزلًا وأبَدًا غَفُورًا أي: بليغَ السَّترِ لِما يريدُ مِن ذنوبِ عبادِه؛ بألَّا يعاتِبَهم عليها، ولا يؤاخِذَهم بها. رَحِيمًا بهم في الإنعامِ عليهم بعْدَ خَلقِهم؛ برزقِهم، وتركيبِ العُقولِ فيهم، ونصْبِ الأدلَّةِ لهم، وإرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكتُبِ فيهم، ولإمهالِهم في تكذيبِهم، أي: فليس لإمهالِهم ووعْظِهم بما نزَّله إليهم سببٌ إلَّا رحمتُه وغفرانُه وعِلمُه بأنَّ كتابَه صَلاحٌ لأحوالِهم في الدارينِ).

((نظم الدرر)) (342/13).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (7–10)

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ
نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ
الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا
(10)

غريب الكلمات:

كَنْزٌ: أي: مالٌ عظيمٌ، وهو في الأصلِ: المالُ المَدْفونُ تحتَ الأرضِ، والكَنْزُ: جعْلُ المالِ بعضِه على بعضٍ، وحِفظُه، وأصلُ (كنز): يدُلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ.

جَنَّةٌ: أي: بُستانٌ، وكُلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يستُرُ بأشجارِه الأرضَ يقالُ له: جنَّةٌ. وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ.

الْأَمْثَالَ: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7)

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما لمحمَّدٍ -الذي يزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ- يأكُلُ الطَّعامَ كما نأكُلُ، ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ والتجارةِ كما نمشي؟![18]

لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا.

أي: هلَّا أنزَلَ اللهُ إلى محمَّدٍ مَلَكًا مِن الملائكةِ، يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُعينُه على إنذارِ النَّاسِ وتبليغِ رسالتِه، إن كان صادِقًا في دعواه أنَّه رَسولٌ مِن عندِ اللهِ!

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8)

---

(18) قال العليمي: (وكُتِبت اللامُ في المصحفِ مفرَدةً مِن قولِه: ﮒ ﮓ، واتِّباعُه سُنَّةٌ).

((تفسير العليمي)) (8/5).

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ.

أي: أو يُلقَى إلى محمَّدٍ كنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه فيُغنيه عن طَلَبِ المعاشِ.

كما قال تعالى: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ [هود: 12].

وقال تعالى حكايةً لِقَولِ فِرعَونَ عن موسى عليه السَّلامُ: فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [الزخرف: 53].

أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا.

أي: أو يكونُ لمحمَّدٍ بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه، فيستغني بذلك عن طَلَبِ الرِّزقِ.(19)

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا [الإسراء: 90، 91].

---

(19) قال الزمخشري: (يَعْنُونَ أنَّه كان يجِبُ أن يكونَ مَلَكًا مستغنيًا عن الأكلِ والتعَيُّشِ، ثمَّ نزَلوا عن اقتراحِهم أن يكونَ مَلَكًا إلى اقتراحِ أن يكونَ إنسانًا معه ملَكٌ؛ حتى يتسانَدَا في الإنذارِ والتَّخويفِ، ثمَّ نزَلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكُنْ مَرْفودًا بملَكٍ فلْيَكُنْ مَرفودًا بكَنزٍ يُلقى إليه من السَّماءِ يَستظهِرُ به، ولا يحتاجُ إلى تحصيلِ المعاشِ، ثمَّ نزلوا فاقتنعوا بأن يكونَ رجُلًا له بستانٌ يأكُلُ منه ويرتَزِقُ كما الدَّهاقينِ والمياسيرِ، أو يأكلون هُم مِن ذلك البُستانِ فينتَفِعون به في دنياهم ومعاشِهم).

((تفسير الزمخشري)) (265/3).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ نَأْكُلُ بالنونِ، أي: أو تكونُ له جَنَّةٌ يُطعِمُنا منها، فنتيقَّنُ أنَّ ثَمَرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ.[20]

2- قراءةُ يَأْكُلُ بالياءِ، أي: يختَصُّ الرَّسولُ بالأكلِ مِن الجنَّةِ، فيَبينُ فَضلُه على غيرِه في مأكَلِه.[21]

وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا.

أي: وقال المُشرِكون: ما تتَّبِعون[22] إلَّا رجُلًا مِن البَشَرِ به سِحرٌ، وليس رسولًا مِن عندِ اللهِ كما يزعُمُ، فهو رجلٌ مَخدوعٌ مَغلوبٌ على أمرِه، ومختَلُّ العَقلِ بالسِّحرِ.

---

(20) قرأ بها حمزة، والكسائي، وخلف.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (333/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (213/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (328/18).

قال البقاعي: (وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالنونِ يكونُ المعنى: أنَّا إذا أمكنَّا منها، كان ذلك أجلَبَ لنا إلى اتِّباعِه).

((نظم الدرر)) (345/13).

وقال ابنُ عاشورٍ: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ: (نأكُلُ منها) بنونِ الجماعةِ.

والمعنى: ليتيقَّنوا أنَّ ثمرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ).

((تفسير ابن عاشور)) (328/18).

(21) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (333/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (213/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (335/5).

(22) قيل: الخطابُ هنا للمؤمنينَ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (404/17)، ((تفسير السمرقندي)) (530/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (24/3)، ((الوسيط)) للواحدي (335/3).

قال ابنُ جرير: (وقال المشركون للمؤمنينَ بالله ورسولِه: إنْ تَتَّبِعُونَ أيُّها القومُ، باتِّباعِكم محمَّدًا).

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9)

أي: انظُرْ -يا محمَّدُ- إلى هؤلاء المُشرِكين كيف يجعَلونَ لك هذه الأوصافَ، ويقولون فيك هذه الأقوالَ الباطلةَ المُتناقِضةَ، فأخطَؤوا بذلك الحَقَّ والصوابَ، فلا يَستطيعون إليه طَريقًا![23]

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10)

((تفسير ابن جرير)) (404/17).
وقيل: الخطابُ لِقَومِهم المشركين، فقال ذلك بعضُهم لبعضٍ.
ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: مكِّيٌّ، والبِقَاعيُّ.
يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5179/8)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (346/13).
(23) قال البِقاعي: (فَضَلُّوا أي: عن جميعِ طرُقِ العَدلِ، وسائِرِ أنحاءِ البيانِ بسبَبِ ذلك، فلم يجِدوا قولًا يستقِرُّون عليه، وأبعدوا جِدًّا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ في الحالِ ولا في المآلِ؛ بسببِ هذا الضَّلالِ سَبِيلًا أي: سُلوكَ سَبيلٍ مِن السُّبُلِ الموصِلةِ إلى ما يستحِقُّ أن يُقصَدَ، بل هم في مَجاهِلَ مُوحِشةٍ، وفيافيَ مُهلِكةٍ).
((نظم الدرر)) (347/13).
وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى: فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا فيه أقوالٌ كثيرةٌ مُتقارِبةٌ، وأظهَرُها أنَّ معنى فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا، أي: طريقًا إلى الحَقِّ والصَّوابِ).
((أضواء البيان)) (22/6).

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: تعاظَمَ الله وكَمَلَت أوصافه وكثُرتْ خيراته ودامتْ وثبتتْ بَرَكاتُه؛ فهو الَّذي إن شاء جعَلَ لك – يا محمَّدُ– خيرًا ممَّا اقترَحه المشركونَ؛ بساتينَ عديدةً في الدُّنيا[24] تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ.

---

(24) وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ وُقوعُ ذلك في الدُّنيا: الواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (416/16)، ((تفسير ابن كثير)) (95/6)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (348/13)، ((تفسير العليمي)) (9/5)، ((تفسير الشوكاني)) (74/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 579)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة الفرقان)) (ص: 58).

ونسَبه ابنُ عاشورٍ للجمهور، ثمَّ قال: (وعلى هذا التأويلِ تكونُ «إن» الشَّرطيةُ واقعةً موقعَ «لو»، أي: إنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءه لفعَلَه، ولكنَّ الحكمةَ اقتضت عدمَ البَسطِ للرَّسولِ في هذه الدُّنيا، ولكنَّ المشركين لا يدركون المطالِبَ العاليةَ.

وقال ابنُ عطيةَ: يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالجنَّاتِ والقصورِ ليست التي في الدُّنيا، أي: هي جناتُ الخُلدِ وقصورُ الجنَّةِ؛ فيكونَ وعدًا مِن الله لرسوله).

((تفسير ابن عاشور)) (330/18، 331).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (201/4).

وممَّن اختار أنَّها في الآخرةِ: السمرقنديُّ.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (530/2).

اختُلِف في المعنيِّ بـــ ﴿ذلك﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِن ذَلِكَ﴾ على قولين: الأول: أنها إشارة إلى ما ذكره الكفار من الكنز والجنة في الدنيا.

الثاني: أنها إشارة إلى أكْلِه الطعام ومَشْيِه في الأسواق.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٤٠٧) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وهو قول مجاهد، وقتادة، ومقاتل، ويحيى بن سلام، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ المشركين إنّما استعظموا أن لا تكون له جنة يأكل منها، وألّا يُلقى إليه كنز، واستنكروا أن يمشي في الأسواق، وهو لله رسولٌ.

فالذي هو أولى بوعد الله إيّاه أن يكون وعدًا بما هو خير مِمّا كان عند المشركين عظيمًا، لا مما كان مُنكَرًا عندهم».

وذكر ابنُ عطية (٤/ ٢٠١ ط: دار الكتب العلمية) القولين، ونقل ترجيح ابن جرير أنّ القول الأول أظهر، ثم علَّق بقوله: «لأن هذا التأويل الثاني يُوهِم أنّ الجنات والقصور التي في هذه الآية هي في الدنيا –وهذا تأويل الثعلبي وغيره–، ويَرُدُّ ذلك قوله بعد ذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسّاعَةِ﴾».

وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا.

أي: وإن شاء اللهُ جعَلَ لك -يا محمَّدُ- بيوتًا مُشَيَّدةً عَظيمةً واسِعةً في الدُّنيا.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءة وَيَجْعَلُ بالرفعِ على الاستِئنافِ، وفيه معنى الحَتمِ، أي: وسيجعَلُ اللهُ لك -يا محمَّدُ- قُصورًا في الجنَّةِ.[25]

2- قراءة وَيَجْعَلْ بالجَزمِ؛ عَطفًا على موضِعِ جَعَلَ أي: إن يَشَأِ اللهُ يجعَلْ لك -يا محمَّدُ- جَناتٍ، ويجعَلْ لك قُصورًا في الدُّنيا.[26]

ثم علَّق بقوله: «والكل مُحْتَمَل».

(25) قرأ بها ابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (333/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (59/4)، ((الكشف)) لمكي (144/2).

(26) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (333/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (59/4)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 508).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (11–16)

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا
لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا
تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ
الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا
مَسْئُولًا (16)

غريب الكلمات:

سَعِيرًا: أي: نارًا مُتَّقِدةً، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه.

تَغَيُّظًا:أي: غَضَبًا شَديدًا، والغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ التي يجِدُها الإنسانُ مِن فوَرانِ دَمِ قَلبِه.

وَزَفِيرًا: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدُلُّ على صَوتٍ.

مُقَرَّنِينَ: أي: مُوثَقينَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، يقالُ: قَرَنتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا شدَدْتَه به ووصَلْتَه، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

ثُبُورًا: أي: هَلاكًا، وأصلُ (ثبر) هنا: الهلاكُ.

تفسير الآيات:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11)

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ

أي: لا تظنَّ أنَّهم كذَّبوا بما جئتَ به مِن الحقِّ -يا محمَّدُ- لأنَّهم يعتقِدونَ فيك كَذِبًا وافتراءً للقُرآنِ، أو نُقصانًا؛ لأكلِك الطَّعامَ ومَشيِك في الأسواقِ، وإنَّما سبَبُ كُفرِهم وتكذيبِهم واقتراحِهم ما اقترَحوه هو عَدَمُ إيمانِهم بالبَعثِ يومَ القيامةِ.

وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا

أي: وهيَّأنا وأرصَدْنا لِمن أنكَرَ البَعثَ يومَ القيامةِ مِن هؤلاء المُشرِكين وغَيرِهم نارًا مُوقَدةً شَديدةَ الحرارةِ، نعَذِّبُهم فيها في الآخرةِ.

كما قال تعالى: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: 13، 16].

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12)

أي: إذا رأتْ تلك النَّارُ أهلَها الكُفَّارَ يومَ القيامةِ مِن مكانٍ بعيدٍ،[27] سَمِعوا صَوتَ غَلَيانِها وتلهُّبِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وسَمِعوا لها صوتَ زَفيرٍ؛ مِن غَضَبِها وحَنَقِها عليهم.[28]

كما قال تعالى: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك: 7، 8].

---

(27) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٢١) أن «لفظ ﴿رَأَتْهُمْ﴾ يحتمل الحقيقة، ويحتمل المجاز على معنى: صـــارت منهم على قدْر ما يرى الرائي من البعد.

إلا أنه ورد حديث يقتضي الحقيقة في هذا».

وذكر حديث أبي أمامة، ونقل أنه «روي في بعض الآثار: أن البعد الذي تراهم منه مسيرة سنة.

ورُوِي: أنه مسيرة خمسمائة سنة».

(28) قال ابنُ جريرٍ: (فإن قال قائلٌ: وكيف قيل: سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا [الفرقان: 12]، والتغيُّظُ لا يُســمَعُ؟ قيل: معنى ذلك: سَمِعوا لها صوتَ التغيُّظِ؛ مِن التلهُّبِ والتوقُّدِ).

((تفسير ابن جرير)) (17/408، 409).

وقال الشـنقيطيُّ: (وللعُلماءِ أقوالٌ في معنى الزَّفيرِ والشَّـهيقِ، وأقربُها: أنَّهما يمثِّلُهما معًا صـوتُ الحِمارِ في نَهيقِه؛ فأوَّلُه زَفيرٌ، وآخِرُه الذي يرَدِّدُه في صَدرِه شَهيقٌ.

والأظهَرُ أنَّ معنى قولِه تعالى: سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا أي: سَمِعوا غلَيانَها مِن شِـــدَّةِ غَيظِها، ولَمَّا كان ســبَبُ الغَلَيانِ التغيُّظَ، أطلَقَه عليه، وذلك أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ).

((أضواء البيان)) (6/24).

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13)

أي: وإذا طُرِح الكُفَّارُ في مكانٍ ضَيِّقٍ في النَّارِ، وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ – رفعوا أصواتَهم بطَلَبِ الهلاكِ؛ ندَمًا على تَركِهم الإيمانَ، وانصرافِهم عن طاعةِ الرَّحمنِ، وتمَنِّيًا للمَوتِ لِيَستريحوا مِن العذابِ.

قال تعالى: وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [إبراهيم: 49].

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14)

أي: يقولُ خَزَنةُ النَّارِ للكُفَّارِ: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا في النَّارِ،(29) بل اطلُبوا كثيرًا مِن ذلك، فعَذابُكم مستَمِرٌّ ومتجَدِّدٌ، ولن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا.

---

(29) اختُلِف في معنى: «الثبور» على قولين: الأول: أنه الويل.

الثاني: أنه الهلاك.

وقد ذكرهما ابنُ جرير (١٧/ ٤١٠ – ٤١١)، ثم علَّق عليهما بقوله: «والثبور في كلام العرب أصله: انصراف الرجل عن الشيء.

يُقال منه: ما ثبرك عن هذا الأمر؟ أي: ما صرفك عنه؟ وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبيُّ الله – ﷺ –، حتى استوجبوا العقوبة منه، كما يقول القائل: واندامتاه، واحسرتاه على ما فرَّطت في جنب الله».

وذكر ابنُ كثير (١٠/ ٢٩٠) قول ابن عباس، والضحاك، ثم جمع بين القولين مستندًا إلى النظائر، فقال: «والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدَّمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وإنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: هالكًا».

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [غافر: 49، 50].

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15)

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– للكُفَّارِ: أذلك العذابُ المستَمِرُّ في النَّارِ خَيرٌ، أم جنَّةُ الخُلدِ الدَّائمُ نعيمُها، التي وعَد اللهُ بها الذين يتَّقونَ سَخطَه وعذابَه؛ بامتِثالِ ما يأمُرُهم، واجتِنابِ ما يَنهاهم؟!

كما قال تعالى: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [القصص: 60، 61].

كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا.

أي: كانت الجَنَّةُ ثَوابًا للمتَّقينَ على تَقواهم وأعمالِهم الصَّالحةِ، ومَرجِعًا يَصيرون إليها في الآخرةِ.

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16)

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ.

أي: للمتَّقينَ في الجنَّةِ ما يَشاؤون ممَّا تَشتهيه أنفُسُهم، لابثِينَ فيها أبدًا بلا زَوالٍ عنها، ولا انقِطاعٍ لنَعيمِها.

كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا.

أي: كان دُخولُ المتَّقينَ الجنَّةَ وَعدًا واجِبًا لا بدَّ أن يقَعَ في الآخرةِ؛ جزاءً لهم على طاعتِهم ربَّهم، وسؤالِهم ذلك في الدُّنيا.[30]

كما قال تعالى حاكيًا عنهم قولَهم: رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

---

(30) قال ابنُ القيم: (كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا يَسألُه إيَّاه عبادُه المؤمنون، ويَسألُه إيَّاه ملائكتُه لهم؛ فالجنَّةُ تَسألُ رَبَّها أهلَها، وأهلُها يسألونَه إيَّاها، والملائكةُ تسألُها لهم، والرسُلُ يسألونَه إيَّاها لهم ولأتْباعِهم).

((حادي الأرواح)) (ص: 90).

ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٢٤) في معنى الآية احتمالين: «أحدهما –وهو قول ابن عباس، وابن زيد – رضي الله عنهم –: أنه مسؤول لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه».

«والمعنى الثاني –ذكره الطبري عن بعض أهل العربية–: أن يريد: وعدًا واجبًا قد حتمه، فهو لذلك مُعَدٌّ أن يُسْأَل ويُقْتَضى».

ثم وجَّهه بقوله: «وليس يتضمن هذا التأويل أنّ أحدًا سأل الوعد المذكور».

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [آل عمران: 194، 195].

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (17–19)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19)

غريب الكلمات:

بُورًا: أي: هَلْكى، مِن: بارَ يَبورُ: إذا هلَك وبطَل، وأصلُ (بور) هنا: يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ، وما يُشْبِهُه مِن تَعَطُّلِه وخُلُوِّه.

صَرْفًا: أي: دَفعًا وحِيلةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17)﴾

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

أي: واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ[31] - يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين ومَعبوداتِهم التي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ.[32]

---

(31) قال محمد رشـيد رضـا: (جمهورُ الْمفسِّـرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه، «واذكُرْ»، وهو خطابٌ للرَّسـولِ صـلَّى الله عليه وسـلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يكونُ كَذا وكَذا؛ لأنَّ هذا معهودٌ ومعروفٌ عندَهم).

((تفسير المنار)) (55/8).

(32) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (415/17)، ((تفسير ابن عطية)) (203/4)، ((تفسير القرطبي)) (10/13)، ((تفسير ابن كثير)) (99/6)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (33/6، 34).

قيل: المرادُ بقولِه: وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: الأصنامُ.

وممَّن اختاره: السمرقنديُّ.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (532/2).

وقيل: المرادُ بقولِه: وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: الملائِكةُ.

وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (229/3)، ((تفسير السمعاني)) (11/4).

وقيل: المرادُ: الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ.

وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازن.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (414/17)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5189/8)، ((تفسير الخازن)) (310/3).

وقال الرازيُّ: (وأمَّا الأكثرونَ فزعَموا أنَّ المرادَ هو الملائِكةُ، وعيسى، وعُزَيرٌ -عليهم السَّلامُ).

فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ.

أي: فيقولُ اللهُ للمَعبوداتِ التي كان يعبُدُها المُشرِكون: أأنتم أضلَلْتُم عبادي هؤلاء عن طَريقِ الهُدى، ودعَوْتُموهم إلى عبادتِكم مِن دوني حتى فَعَلوا ذلك، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن طَريقِ الحَقّ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ دَعوةٍ وتَضليلٍ منكم؟[33]

((تفسير الرازي)) (24/442).

وممَّن اختار العُمومَ، وأنَّ المرادَ كُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبقاعي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/203)، ((تفسير البيضاوي)) (4/120)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/360)، ((تفسير ابن عاشور)) (18/337).

قال ابنُ عطيَّة: (وقولُه: وَمَا يَعْبُدُونَ يريدُ به كُلَّ شيءٍ عُبِدَ مِن دون الله، فغَلَّب العبارةَ عمَّا لا يعقِلُ مِن الأوثانِ؛ لأنَّها كانت الأغلَبَ وقتَ المخاطَبة).

((تفسير ابن عطية)) (4/203).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي شُمولُ المعبودينَ المذكورينَ للأصنامِ مع الملائكةِ وعيسى وعُزَيرٍ؛ لأنَّ ذلك تدُلُّ عليه قرينتانِ قرآنيتانِ؛ الأولَى: أنَّه عبَّرَ عن المعبودينَ المذكورينَ بـ «ما» التي هي لغيرِ العاقِلِ في قولِه: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الآيةَ؛ فلفظةُ «ما» تدُلُّ على شُمولِ غيرِ العقلاءِ، وأنَّه غلَّب غيرَ العاقِلِ؛ لكثرتِه.

القرينة الثانية: هي دَلالةُ آياتٍ مِن كتابِ اللهِ على أنَّ المعبودينَ غافلونَ عن عبادةِ مَن عبَدَهم، أي: لا يعلَمون بها؛ لكَونِهم غيرَ عُقلاءَ...

وإطلاقُ اللَّفظِ المختصِّ بالعُقلاءِ عليهم؛ نظرًا إلى أنَّ المشركينَ نَزَّلوهم منزلةَ العُقلاءِ).

((أضواء البيان)) (6/33، 34).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/360).

(33) اختُلِف في المخاطَب بقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هَؤُلَاءِ﴾ على قولين: الأول: أنّ المخاطَب هو عيسى – عليه السلام –، وعزير، والملائكة.

الثاني: أنّ المخاطَب هو الأوثان وعَبَدَتُها، ثم يأذن الله تعالى لها في الكلام.

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ٤٢٥) على القول الثاني بقوله: «ويجيء خِزْي الكفرة لذلك أبلغ».

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... [المائدة: 116].

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18)

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ.

أي: قال المعبودون مِن دونِ اللهِ: ننزّهُك –يا اللهُ– عن مُشارَكتِك في الألوهيَّةِ، فما يليقُ ولا يحِقُّ لنا أن نَعبُدَ غيرَك، ونواليَ سِواك، ولا نطلُبَ مِن النَّاسِ أن يكونوا عابدينَ لنا؛ فنحن ما دعَوْناهم إلى ذلك، بل هم فعَلوه مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ أمْرِنا ولا رِضانا، ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادتِهم.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [سبأ: 40، 41].

ورجَّح ابنُ القيم (٢/ ٢٥٤) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وهو قول مجاهد، فقال بعد أن ذكر إجابة المعبودين بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: «وهذا الجواب إنّما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومَن عبدهم المشركون من أولياء الله».

وانتقد (٢/ ٢٥٥) القول الثاني قائلًا: «وأمّا كونه من الأصنام فليس بظاهر».

غير أنه ذكر له مخرجًا يُمكن أن يُحمَل عليه، فقال: «وقد يقال: إنّ الله سبحانه أنطقها بذلك تكذيبًا لهم، وردًّا عليهم، وبراءة منهم، كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]».

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: نَتَّخِذَ قراءتانِ:

1- قراءةُ: نُتَّخَذَ بضمِّ النُّونِ، وفتحِ الخاءِ، على البناءِ للمفعولِ؛ أيْ: ما كان يَنْبَغي لنا أنْ يَتَّخِذَنا المشرِكونَ أولِياءَ مِن دونِكَ.(34)

2- قراءةُ: نَتَّخِذَ بِفتحِ النُّونِ، وكسرِ الخاءِ، والمعنى أنَّ هؤلاءِ المعبودينَ هم الَّذينَ تَبَرَّءوا أنْ يكونَ كانَ لهم وَلِيٌّ غيرُ اللَّهِ تعالَى ذِكْرُه.(35)

وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ.

أي: ولكِنْ متَّعْتَ -يا ربَّنا- هؤلاء المُشرِكين وآباءَهم في الدُّنيا بالنِّعَمِ، فانشَغَلوا بالشَّهواتِ حتى تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه الأمرُ بتوحيدِك وعبادتِك وحْدَك لا شَريكَ لك.

وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا.

---

(34) قرأ بها أبو جعفر.
يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (333/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الرسعني)) (308/5)، ((تفسير الشوكاني)) (78/4).
(35) قرأ بها الباقون.
يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (333/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (417/17).

أي: وكان المُشرِكون قومًا هَلْكى، قد غلَب عليهم الخِذلانُ والشَّقاءُ.(36)

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا

(19)

---

(36) اختُلِف في المخاطَب بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ولا نَصْرًا﴾ على قولين: الأول: المخاطب الكفار، والمعنى: فقد كذبوكم أيها الكافرون مَن زعمتم أنهم أضلوكم.

الثاني: المخاطَب المؤمنون، والمعنى: قد كذبكم أيها المؤمنون الكفار فيما تقولون من التوحيد والشرع.

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ٤٢٦) على القول الأول بقوله: «وفي هذا الإخبار خِزْيٌ وتوبيخ».

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٤٢٠) مستندًا إلى السياق القول الأول، وهو قول مجاهد، فقال: «وهو أن يكون خبرًا عن الذين كذبوا الكافرين في زعمهم أنهم دعَوهم إلى الضلالة وأمروهم بها، على ما قاله مجاهد من القول الذي ذكرناه عنه أشبه وأولى؛ لأنه في سياق الخبر عنهم».

ووجَّه قول ابن زيد –وهو القول الثاني– قائلًا: «فوجَّه ابن زيد تأويل قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ إلى: فقد كذبكم –أيها المؤمنون– المكذبون بما جاءهم به محمدٌ من عند الله بما تقولون من الحق».

ثم ذكر (١٧/ ٤٢٢) قراءة ابن مسعود: (فَما يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفًا)، وعلَّق صحة تأويل ابن زيد على صحة هذه القراءة، فقال بعد أن ذكر قراءة ابن مسعود: «فإن تكن هذه الرواية عنه صحيحة صحَّ التأويل الذي تأوَّله ابن زيد في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ﴾، ويصير قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ خبرًا عن المشركين أنهم كذبوا المؤمنين».

ثم بيَّن معنى: ﴿فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ولا نَصْرًا﴾ على هذه القراءة، فقال: «ويكون تأويل قوله حينئذٍ: ﴿فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ولا نَصْرًا﴾: فما يستطيع –يا محمد– هؤلاء الكفار لك صرفًا عن الحق الذي هداك الله له، ولا نصرَ أنفسهم مما بهم من البلاء الذي هم فيه بتكذيبهم إياك».

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (416/17، 418)، ((تفسير القرطبي)) (11/13)، ((تفسير ابن كثير)) (100/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (341/18)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (34/6).

قال ابن جرير: (وإنَّما أُريدَ بالبورِ في هذا الموضِعِ أنَّ أعمالَ هؤلاء الكُفَّارِ كانت باطلةً؛ لأنَّها لم تكُنْ لله). ((تفسير ابن جرير)) (419/17).

وقال البقاعي: (وَكَانُوا في عِلمِك بما قضيتَ عليهم في الأزَلِ قَوْمًا بُورًا هَلْكى). ((نظم الدرر)) (363/13).

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ.

أي: فقد كذَّبكم –أيُّها المُشرِكون– مَن عبَدْتُموهم مِن دُونِ اللهِ، وأنكروا قولَكم أنَّهم أمَروكم بعبادتِهم، ورَضُوا فِعْلَكم، وأنَّهم شُفَعاءُ لكم عندَ رَبِّكم، وكذَّبوكم في زَعمِكم أنَّهم آلهةٌ![37]

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ [النحل: 86].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81، 82].

وقال تبارك وتعالى: وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 6].

---

(37) قال ابن عطية: (الآيةُ خِطابٌ مِن الله تعالى بلا خِلافٍ).

((تفسير ابن عطية)) (4/204).

وقال ابن عاشــــور: (الباءُ في قولِه: بِمَا تَقُولُونَ يجوزُ أن تكونَ بمعنى «في» ...، أي: كذَّبوكم تكذيبًا واقِعًا فيما تقولون، ويجوزُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: كذَّبوكم بسَبَبِ ما تقولون).

((تفسير ابن عاشور)) (18/342).

فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا.

أي: فما تَستطيعون -أيُّها المُشرِكونَ- صَرْفَ عذابِ اللهِ عنكم بفِداءٍ أو غيرِه، ولا تستطيعونَ نَصرَ أنفُسِكم؛ لِعَجزِكم.[38]

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

1- قراءةُ تَسْتَطِيعُونَ بالتاءِ على الخِطابِ للمُشرِكين، أي: فما تَستطيعونَ -يا عَبَدةَ الأوثانِ- صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم، ولا نَصرًا منه لأنفُسِكم.[39]

2- قراءةُ يَسْتَطِيعُونَ بالياءِ على الإخبارِ عن المعبودينَ مِن دونِ اللهِ، أي: فما يستطيعُ الآلهةُ صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم -أيُّها المشركون- ولا نَصرًا لكم.[40]

---

(38) قال الواحدي: (وتفسيرُ الصَّرفِ هاهنا: صرْفُ العذابِ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ ومقاتلٍ، وأكثَرِ المفسِّرينَ، وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (440/16).

(39) قرأ بها حفصٌ عن عاصم.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (334/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (215/2)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (340/5)، ((الكشف)) لمكّي (145/2).

(40) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (334/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (215/2)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (340/5)، ((الكشف)) لمكّي (145/2).

وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا

أي: ومَن يَظلِمْ نفْسَه منكم[41] بالشِّركِ، نُعَذِّبْه في النَّارِ عذابًا كبيرًا.[42]

كما قال تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [المائدة: 72].

---

(41) قال ابن عطية: (وقوله: وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ، قيل: هو خطابٌ للكفَّارِ، وقيل: للمؤمنينَ).
((تفسير ابن عطية)) (204/4).
ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للمؤمنينَ: ابنُ جريرٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (422/17).
وممَّن اختار أنَّ الخطابَ لعموم المكلَّفينَ: البيضاويُّ، والنسفي، والقاسمي، وابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (121/4)، ((تفسير النسفي)) (531/2)، ((تفسير القاسمي)) (423/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (342/18).
قال الشوكاني: (وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا هذا وعيدٌ لكلِّ ظالمٍ، ويدخُلُ تحتَه الذي فيهم السياقُ دخولًا أوَّليًّا).
((تفسير الشوكاني)) (79/4).
وقال السعدي: (وأمَّا المعانِدُ منهم الذي عرَف الحقَّ وصدَفَ عنه، فقال في حقِّه: وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ بتركِ الحقِّ ظُلمًا وعنادًا نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُبلَغُ أمرُه).
((تفسير السعدي)) (ص: 580).
(42) قال ابن عطية: (الظُّلمُ هنا: الشِّركُ.
قاله الحَسَنُ وابنُ جُرَيجٍ.
وقد يحتمِلُ أن يعُمَّ غيرَه من المعاصي).
((تفسير ابن عطية)) (204/4).
وقال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فمَن يَعدِلْ منكم لسَماعِ هذا الوَعظِ بوَضعِ العِبادةِ في موضِعِها، نُثِبْه ثوابًا جليلًا؛ عطف عليه ما المقامُ له، فقال: وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ بوَضعِها في غيرِ مَوضِعِها، وباعتِقادِه في الرسُلِ ما لا يَنبغي من أنَّه لا يَنبغي لهم أن يكونوا مِثلَ النَّاسِ في أكلٍ ولا طلَبِ مَعيشةٍ ونحوِ ذلك؛ نُذِقْهُ في الدُّنيا والآخرةِ، بما لنا من العَظَمةِ عَذَابًا كَبِيرًا).
((نظم الدرر)) (364/13).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (20–24)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ
يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا
عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا (24)

غريب الكلمات:

وَعَتَوْا: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعاتي: هو المبالِغُ في رُكوبِ المعاصي المتمَرِّدُ، والعُتُوُّ: تجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلمِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ.

حِجْرًا مَحْجُورًا: أي: حَرَامًا محرَّمًا، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على مَنعٍ.

هَبَاءً مَنْثُورًا: أي: ضائِعًا باطِلًا، والهباءُ المنثورُ: ما يدخُلُ البَيتَ مِن الكُوَّةِ (النافذة) مِثلَ الغُبارِ إذا طلَعَت فيها الشَّمسُ. وأصلُ الهباءِ: يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ، وأصلُ (نشر): يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتفَرِّقٍ.

مَقِيلًا: أي: مَنزِلًا وقرارًا وقتَ القائلةِ، والقَيلولةُ عند العَرَبِ: الاستراحةُ نِصفَ النَّهارِ إذا اشتَدَّ الحَرُّ.

تفسير الآيات:

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ.

أي: وما أرسَلْنا قبْلَك –يا محمَّدُ– أحدًا مِن المرسَلينَ إلَّا والحالُ أنَّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعامَ ويمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك؛ لكَونِك تأكُلُ الطَّعامَ وتَمشي في الأسواقِ.

كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ [الأنبياء: 7، 8].

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ.

أي: وامتحَنَّا –أيُّها النَّاسُ– بعضَكم ببعضٍ؛ لِيَظهَرَ ما نعلَمُه منكم في عالَمِ الغيبِ مِن الطَّاعةِ والمعصيةِ في عالَمِ الشَّهادةِ، فهلْ تَصبِرونَ على البَلاءِ أو لا تَصبِرونَ؟(43)

---

(43) قال ابن القيم: (قال تعالى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ [الأنعام: 53] ، وقال تعالى: وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ، فهو سبحانه جعَل أولياءَه فتنةً لأعدائه، وأعداءَه فِتنةً لأوليائِه، والملوكَ فِتنةً للرعيَّةِ، والرعيَّةَ فتنةً لهم، والرِّجالَ فِتنةً للنِّساءِ، وهنَّ فِتنة لهم، والأغنياءَ فِتنةً للفقراءِ، والفُقراءَ فِتنةً لهم، وابتلى كلَّ أحدٍ بضِدِّ جعَلَه مُتقابِلًا؛ فما استقرَّت أقدامُ الأبوَينِ على الأرضِ إلَّا وضِدُّهما مقابِلهما، واستمرَّ الأمرُ في الذُّرِّيَّةِ كذلك إلى أن يطويَ اللهُ الدُّنيا ومَن عليها، وكم له

قال تعالى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [الأنعام: 53].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال فيما يرويه عن اللهِ: ((قال: إنَّما بعثتُك لأبتلِيَك وأبتليَ بك)).[44]

سبحانَه في مِثلِ هذا الابتِلاءِ والامتحانِ مِن حِكمةٍ بالغةٍ، ونِعمةٍ سابِغةٍ، وحُكمٍ نافذٍ، وأمرٍ ونهيٍ، وتصريفٍ دالٍّ على ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ومُلكِه وحَمدِه!).

((شفاء العليل)) (ص: 244).

ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (2/162).

وممَّن اختار هذا المعنى بعمومِه في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن رجب، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/424)، ((تفسير القرطبي)) (13/18)، ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: 122، 123)، ((تفسير السعدي)) (ص: 580).

قال ابن عاشور: (وحالُ الفتنةِ في كِلا البعضينِ مختلِفٌ؛ فبعضُها فِتنةٌ في العقيدةِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأمنِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأبدانِ، وشمِلَ أحدُ البعضينِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ معه، والبعضُ الآخَرُ المشركينَ، فكان حالُ الرَّسولِ فتنةً للمُشرِكين؛ إذْ زعَموا أنَّ حالَه مُنافٍ للرسالةِ فلم يؤمنوا به، وكان حالُ المؤمنينَ في ضَعفِهم فتنةً للمُشرِكين؛ إذ ترفَّعوا عن الإيمانِ الذي يُسَوِّيهم بهم).

((تفسير ابن عاشور)) (18/344).

(44) رواه مسلم (2865).

وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا.

أي: وكان ربُّك –يا محمَّدُ– بَصيرًا بمَن يَصبِرُ مِن عبادِه ومَن لا يصبِرُ على ما امتُحِنَ به، ويعلَمُ أحوالَكم وأعمالَكم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه، ويختَصُّه بتفضيلِه.[45]

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21)

---

(45) ممَّن اختار أنَّ معنى وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا أي: بمَن يصبِرُ وبمَن يجزَعُ: ابنُ جرير، ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/425)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5197)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 776)، ((تفسير البغوي)) (3/440)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/316)، ((تفسير الرازي)) (24/447)، ((تفسير الخازن)) (3/311)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 472)، ((تفسير الشوكاني)) (4/80).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/426).

وقيل: المعنى: إنَّ اللهَ بصيرٌ بمن يَستحِقُّ أن يُوحى إليه ومَن يستحِقُّ أن يهديَه اللهُ لِما أرسَلَهم به، ومَن لا يستَحِقُّ ذلك.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/100).

وقال الثعلبيُّ: (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا بمَن يَصبرُ ويَجزَعُ، وبمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ).

((تفسير الثعلبي)) (7/128).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا أي: بكلِّ امرئٍ، وبمن يصبرُ أو يجزعُ، ومَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ، وبمن أدَّى ما عليه مِن الحقِّ ومَن لا يؤدِّي).

((تفسير القرطبي)) (13/19).

وقال السعدي: (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا يعلَمُ أحوالَكم، ويصطفي مَن يعلَمُه يصلُحُ لرسالتِه ويختَصُّه بتفضيلِه، ويعلَمُ أعمالَكم فيُجازيكم عليها: إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ).

((تفسير السعدي)) (ص: 580، 581).

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا.

أي: وقال الكفَّارُ الذين لا يَطمَعونَ في لقائِنا، فلا يرجونَ ثوابَنا ولا يخافونَ عِقابَنا؛[46] لإنكارِهم البَعثَ: هلَّا أنزَلَ اللهُ علينا الملائِكةَ، أو نرى اللهَ بأعيُنِنا فنُؤمِنَ؟![47]

---

(46) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٢٩) مَن قال إن معنى قوله: ﴿يرجون﴾: يخافون، وذكر أنه يشهد له قول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل

ثم رجَّح مستندًا إلى اللغة أنّ الرجاء على بابه، فقال: «والذي يظهر لي: أن الرجاء في هذه الآية والبيت على بابه؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبدًا برجائه، فإذا نُفِي الرجاءُ عن أحد فإنما أُخْبِر عنه أنّه مكذب بالبعث؛ لنفي الخوف والرجاء، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاء تنبيهٌ على غِبْطَة ما فاتهم مِن رجاء الله تعالى.

وأمّا بيت الشعر المذكور فمعناه عندي: لم يرجُ دفعها، ولا الانفكاك عنها.

فهو لذلك يوطن على الصبر، ويجدّ في شغله».

(47) قيل: المعنى: هلَّا أنزل اللهُ علينا ملائكةً، فتُخبِرَنا أنَّ محمَّدًا مُحِقٌّ فيما يقولُ، وأنَّ ما جاءنا به صِدقٌ، أو نرى ربَّنا فيُخبِرَنا بذلك! وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكّي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والخازن، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (426/17)، ((تفسير السمرقندي)) (534/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (257/3)، ((تفسير الثعلبي)) (129/7)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5197/8)، ((تفسير البغوي)) (440/3)، ((تفسير الزمخشري)) (272/3)، ((تفسير القرطبي)) (19/13)، ((تفسير الخازن)) (311/3)، ((تفسير الألوسي)) (4/10).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (426/17).

وقيل: معنى: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أي: بالرسالةِ كما أتت الأنبياءَ والرسُلَ، كما أخبَرَ عنهم تعالَى في الآيةِ الأخرى: قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ [الْأَنْعَامِ: 124].

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (101/6)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (492/1).

وقيل: المعنى: هلَّا أُنْزِلَ علينا الملائكةُ فكانوا رُسُلًا إلينا! وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (230/3)، ((البسيط)) للواحدي (449/16)، ((الوسيط)) للواحدي (338/3).

وقال السعدي: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا أي: هلَّا نُزِّلَت الملائِكةُ تَشهَدُ لك بالرِّسالةِ وتؤيِّدُك عليها، أو تُنزلُ رُسُلًا مُستقِلِّينَ، أو نرى ربَّنا فيُكلِّمَنا ويقولَ: هذا رَسولي فاتَّبِعوه؟!).

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 90 – 93].

لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ.

أي: لقد تكبَّرَ الكُفَّارُ الذين تجرَّؤوا على اقتراحِ نُزولِ الملائِكةِ عليهم، أو رُؤيةِ اللهِ في الدُّنيا، وتعظَّموا في أنفُسِهم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ [غافر: 56].

وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا.

أي: وتجاوَزَ أولئك الكُفَّارُ الحَدَّ في الكِبْرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، باقتراحِهم ذلك.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22)

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ.

((تفسير السعدي)) (ص: 581).

أي: يومَ يرى الكُفَّارُ مَلائكةَ الموتِ حينَ تَنزِلُ لقَبضِ أرواحِهم، ويَرون ملائِكةَ العذابِ في البَرزخِ ويومَ القيامةِ؛ فلا تُبَشِّرُ الملائكةُ المُجرِمين يومَ يَرَونَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ.(48)

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [الأنعام: 93].

وقال سُبحانَه: وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [الأنفال: 50].

وقال تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [النحل: 28، 29].

---

(48) قوله تعالى: ﴿يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: عند الموت.

والآخر: يوم القيامة.

وذكر ابنُ كثير (١٠/ ٢٩٤ - ٢٩٥ بتصرف) أنّه لا مُنافاة بين القولين، فقال: «ولا منافاة؛ فإنّ الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تَتَجَلّى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين».

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عن النبيّ – ﷺ – قال: ((إنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِن السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوجوهِ، معهم المُسُوحُ،[49] فيَجلِسون منه مَدَّ البصرِ،[50] ثمَّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ، فتَفرَّقُ في جَسَدِه، فينتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ[51] مِن الصُّوفِ المبلولِ، فيأخُذُها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يجعَلوها في تلك المُسُوحِ، ويخرُجُ منها كأنتَنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت على وجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يمُرُّون بها على ملأٍ مِن الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فُلانُ بنُ فلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ – ﷺ –: لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [الأعراف: 40]، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبوا كتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [الحج: 31] ، فتُعادُ رُوحُه في جسَدِه، ويأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما دِينُك؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ،

---

(49) المُسُوحُ، جمعُ المِسْحِ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1179/3).
(50) مَد البصَر: عبارةٌ عمَّا ينتهي إليه بصَرُ الإنسانِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (496/5).
(51) السَّفُّودُ: أي: الحديدةُ التي يُشوى بها اللَّحمُ.
يُنظر: ((شرح المشكاة للطيبي)) (1381/4).

لا أدري، فيقولانِ له: ما هذا الرجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ أن كذَبَ، فافرِشُوا له مِن النَّارِ، وافتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيه مِن حَرِّها، وسَمومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختَلِفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوجهِ، قَبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسوؤُك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ. فيقولُ: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ. فيقولُ: أنا عمَلُك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ، لا تُقِمِ السَّاعةَ)).[52]

وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا.

---

(52) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (12059)، وأحمد (18534)، والحاكم في ((المستدرك)) (107) بألفاظٍ متقاربة.
صحَّح إسنادَه ابنُ جريرٍ في ((مسند ابن عمر)) (2/494)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (1/300)، وحسَّن الحديثَ المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (4/280)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (3558).

أي: ويقولُ الملائِكةُ للكُفَّارِ:[53] حَرامٌ مُحَرَّمٌ عليكم الفَلاحُ اليومَ.[54]

---

(53) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (429/17)، ((تفسير ابن كثير)) (102/6).

وممَّن ذهب إلى أنَّ القائلينَ بذلك هم الملائكةُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ونسَبه إلى الجمهورِ.

يُنظر: المصدران السابقان.

وممَّن ذهب إلى ذلك أيضًا: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكّي، والنسفي.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (534/2)، ((تفسير الثعلبي)) (129/7)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5198/8)، ((تفسير النسفي)) (532/2).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخُدْريُّ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (428/17)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2677/8)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (245/6).

وممَّن اختار أنَّ القائلينَ بذلك هم المجرمون الكفَّارُ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (274/3)، ((تفسير البيضاوي)) (122/4)، ((تفسير أبي حيان)) (97/8)، ((تفسير الشوكاني)) (81/4)، ((تفسير القاسمي)) (424/7)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (39/6).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ، ومجاهدٌ في رواية عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (429/17)، ((تفسير الماوردي)) (141/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (317/3).

قال ابنُ جُزي: (إن كان الضميرُ للمجرمينَ فالمعنى أنَّهم يقولونَ: حجرًا، بمعنى عوذًا؛ لأنَّ العربَ كانت تتعوَّذُ بهذه الكلمةِ ممَّا تَكرهُ، وانتِصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهارُه، نحو: معاذَ الله).

((التسهيل لعلوم التنزيل)) (ص: 1266).

وقال الشنقيطي: (الكفَّار الَّذينَ اقْتَرَحوا إنزالَ الملائكةِ إذا رَأَوُا الملائكةَ تَوَقَّعوا العذابَ مِن قِبَلِهم، فيقولونَ حينئذٍ للملائكةِ: حِجْرًا مَحْجُورًا: أي: حرامًا مُحَرَّمًا عليكم أنْ تَمَسُّونا بسوءٍ؛ أي: لأنَّنا لم نرتكِبْ ذنبًا نَستوجِبُ به العذابَ).

((أضواء البيان)) (39/6).

وقال الواحدي: (قولُه: حِجْرًا مَحْجُورًا أي: حرامًا مُحَرَّمًا.

قاله ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرينَ.

وأصلُ الحَجرِ في اللغة: المنعُ).

((البسيط)) (454/16).

(54) اختُلِف في المخبر عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾، ومَن قائلوه؟ فقال بعضهم: قائلو ذلك الملائكة للمجرمين.

وقال آخرون: ذلك قول المشركين إذا عاينوا الملائكة، ومعناه الاستعاذة من الملائكة.

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23)

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٤٣٠) مســتندًا إلى اللغة والعقل القولَ الأول، وانتقد الثانيَ الذي قاله ابنُ جريج، ومجاهد من طريق ابن جريج، فقال: «وإنّما اخترنا القولَ الذي اخترنا في تأويل ذلك مِن أجل أنّ الحِجْر هو الحرام، فمعلومٌ أنّ الملائكة هي التي تخبر أهل الكفر أنّ البُشرى عليهم حرام.

وأما الاستعاذة فإنها الاستجارة، وليست بتحريم، ومعلومٌ أنّ الكفار لا يقولون للملائكة: حرام عليكم.

فيُوَجَّه الكلام إلى أنّ ذلك خبر عن قِيل المجرمين للملائكة».

وانتقد ابنُ كثير (١٠/ ٢٩٥ - ٢٩٦) القولَ الثاني مستندًا للسياق، وقول الجمهور، فقال: «وهذا القول -وإن كان له مأخذ ووجه- ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد، لا سيما قد نص الجمهور على خلافه».

ثم علق على الروايات المختلفة عن مجاهد بقوله: «ولكن قد روى ابنُ أبي نَجِيح عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: أي: عوذًا معاذًا.

فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج.

ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد أنه قال: ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾، أي: عوذًا معاذًا، الملائكة تقوله.

فالله أعلم».

وساق ابنُ عطية (٦/ ٤٣٠) القول الثاني، ثم قال: «ويحتمل أن يكون المعنى: ويقولون: حرام محرم علينا العفو».

أي: وعَمَدْنا يومَ القيامةِ إلى ما عَمِل هؤلاء المُجرِمونَ في الدُّنيا مِن العباداتِ وأعمالِ البِرِّ والخَيرِ، فأحبَطْناها وأبْطَلْناها، حتَّى صارَتْ كالهباءِ[55] المتفرِّقِ المتبدِّدِ،[56] فلا ينتفِعُ منها صاحبُها بشَيءٍ أصلًا.[57]

---

(55) قال ابنُ جرير: (والهَباءُ: هو الذي يُرى كهيئةِ الغُبارِ إذا دخل ضَوءُ الشَّمسِ مِن كَوَّةٍ، يحسَبُه الناظِرُ غُبارًا، وليس بشَيءٍ، تَقبِضُ عليه الأيدي ولا تَمَسُّه، ولا يُرى ذلك في الظِّلِّ).

((تفسير ابن جرير)) (431/17).

وقال البقاعي: (باطلًا لا نفعَ فيه، وهو معنى هَبَاءً، وهو ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ الدَّاخِلِ مِن الكُوَّةِ ممَّا يُشبِهُ الغُبارَ، فهو أشبَهُ شَيءٍ بالعدَمِ؛ لأنَّه لا نفعَ له أصلًا).

((نظم الدرر)) (371/13).

(56) اختُلِف في الهباء المنثور؛ فقال قوم: هو ما رأيتَه يتطاير في الشمس التي تدخل من الكوَّة مثل الغبار.

وقال آخرون: الماء المُهراق.

وقال غيرهم: ما تنسفه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر.

وقال غيرهم: الشَّرر الذي يطير من النار إذا أُضرمت.

وقال آخرون: ما يسطع من حوافر الدَّواب.

ورجَّح ابنُ عطية (٦/ ٤٣١) مستندًا إلى اللغة القولَ الأول الذي قاله عليّ، وابن عباس، والضحاك، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، وعامر، فقال: «والأول أصحُّ، والعرب تقول: هبات الغبار والتراب ونحوه: إذا بثته».

وذكر ابنُ كثير (١٠/ ٢٩٧) الأقوال، ثم علَّق بقوله: «وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها شيء، فلما عُرِضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا إذا إنها لا شيء بالكلية. وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]».

(57) قال ابن القيم: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا وهي الأعمالُ التي كانت لغيرِ الله، وعلى غيرِ أمْرِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((مدارج السالكين)) (514/1).

وقال ابن عاشور: (كانوا في الجاهليَّةِ يَعُدُّون الأعمالَ الصالحةَ مَجلبةً لخَيرِ الدُّنيا؛ لأنَّها تُرضي الله تعالى فيُجازيهم بنِعَمٍ في الدنيا؛ إذ كانوا لا يؤمنون بالبَعثِ).

((تفسير ابن عاشور)) (8/19).

كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: 18].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [النور: 39].

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

أي: أهلُ الجَنَّةِ بسَبَبِ ما عَمِلوه من الأعمالِ المتقَبَّلةِ أفضَلُ[58] منزِلًا في الجَنَّةِ، وأحسَنُ مَوضِعَ قائِلَةٍ.[59]

---

(58) قال ابن جُزي: خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا جاء هنا التفضيلُ بيْنَ الجنةِ والنارِ؛ لأنَّ هذا مستقَرٌّ وهذا مستقَرٌّ).
((تفسير ابن جزي)) (2/81).
وقال السعدي: (هذا من بابِ استِعمالِ أفعَلِ التفضيلِ فيما ليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ؛ لأنَّه لا خيرَ في مَقيلِ أهلِ النَّارِ ومُستقَرِّهم، كقَولِه: آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ [النمل: 59]).
((تفسير السعدي)) (ص: 581).
ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (1/258).
(59) قال البقاعي: (وَأَحْسَنُ مَقِيلًا أي: مكانًا يمكنُ فيه الاستراحةُ في مثلِ وقت القَيلولةِ للاسترواحِ بأزواجِهم، والتمتع بما يكونُ في الخَلَواتِ).
((نظم الدرر)) (13/372).
وقال ابن عاشور: (والمَقيلُ: المكانُ الذي يُؤوَى إليه في القَيلولةِ، والاستراحةُ في ذلك الوقتِ مِن عادةِ المترَفينَ).
((تفسير ابن عاشور)) (19/9).
وقال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ المشهورَ في كلامِ العرب أنَّ المَقيلَ: القيلولةُ أو مكانُها، وهي الاستراحةُ نصفَ النهارِ زمنَ الحَرِّ مثلًا، وإن لم يكن معها نومٌ).
((أضواء البيان)) (6/43).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (25–29)

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)

غريب الكلمات:

بِالْغَمَامِ: أي: السَّحابِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَغُمُّ السَّماءَ، أي: يَستُرُها ويُغطِّيها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيته فقدْ غَمَمتَه، وأصلُ (غمم): يدُلُّ على تغطيةٍ وإطباقٍ.

خَلِيلًا: الخَليلُ: الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، أي: الصَّداقةِ والموَدَّةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تتوسَّطُها.

خَذُولًا: أي: كثيرَ الخِذلانِ، والخِذلانُ: تَركُ المَعونةِ، وأصلُ (خذل): يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه.

تفسير الآيات:

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25)

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ.

أي: واذكُرْ أيُّها الرسولُ[60] يومَ القيامةِ حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ أبيَضَ رَقيقٍ.[61]

وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا.

أي: وتُنَزَّلُ الملائِكةُ يومَ القيامةِ مِن السَّمواتِ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا.

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ [النحل: 33].

وقال سُبحانَه: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [الفجر: 22].

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26)

---

(60) قال محمد رشيد رضا: (وجمهورُ المفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يومٍ» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه «واذْكُرْ»، وهو خطابٌ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يَكونُ كَذا وكَذا).
((تفسير المنار)) (55/8).

(61) وقال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن هَولِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيه مِن الأمورِ العظيمةِ؛ فمنها انشِقاقُ السَّماءِ وتفطُّرُها، وانفراجُها بالغَمامِ، وهو ظُلَلُ النورِ العظيمِ الذي يُبهِرُ الأبصارَ).
((تفسير ابن كثير)) (105/6).

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ.

أي: السُّلطانُ –يومَ القيامةِ– المؤكَّدُ الثَّابتُ الذي لا يَزولُ: للرَّحمنِ وَحْدَه دُونَ غَيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ.

كما قال تعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

وعن أبي هُريرةَ رَضِـــيَ الله عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أين ملوكُ الأرضِ؟)).[62]

وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا.

أي: وكان يومُ القيامةِ يَومًا صَعبًا شَديدًا على الكافرينَ.[63]

كما قال تعالى: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [المدثر: 8 – 10].

---

(62) رواه البخاري (7382) واللفظ له، ومسلم (2787).

(63) قال القرطبي: (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا أي: لِما يَنالُهم مِن الأهوالِ، ويَلحَقُهم مِن الخزيِ والهوانِ، وهو على المؤمنينَ أخَفُّ مِن صَلاةٍ مكتوبةٍ...، وهذه الآيةُ دالَّةٌ عليه؛ لأنَّه إذا كان على الكافرين عَسيرًا، فهو على المؤمنين يَسيرٌ).

((تفسير القرطبي)) (24/13).

وقال ابن كثير: (قوله: وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا أي: شديدًا صَعبًا؛ لأنَّه يومُ عَدلٍ، وقَضاءٍ فَصلٍ).

((تفسير ابن كثير)) (107/6).

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27)

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ.

أي: واذكُرْ يومَ القيامةِ حينَ يَعَضُّ الظَّالِمُ المخالِفُ لطَرِيقِ الرَّسولِ على يَدَيه؛ نَدَمًا وحَسرةً وأسَفًا.(64)

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا.

أي: يَقولُ هذا الظَّالِمُ: يا ليتني اتَّبَعتُ في الدُّنيا طريقَ رَسولِ اللهِ، فآمنتُ به ولم أخالِفْه؛ لأنجوَ مِن عذابِ اللهِ، وأصِلَ إلى جنَّاتِه.

---

(64) اختُلِف في نزول الآية؛ فقيل بنزولها في عقبة وأُبيّ، وقيل في عقبة وأمية.

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ٤٣٥) القول الأول مستندًا إلى أحوال النزول، فقال: «ويشبه أنّ سبب الآية وترتُّب هذا المعنى كان عقبة وأبيًّا».

ووجَّه الألف واللام في ﴿الرسول﴾ بأنها للعهد والإشارة إلى محمد - ﷺ -، وانتقد القولَ بإدخال أمية بن خلف في هذه الآية، فقال: «ومَن أدخل في هذه الآية أمية بن خلف فقد وهِم، إلا على قول من يرى ﴿الظّالِم﴾ اسمَ جنس».

وهو قول مجاهد، وأبي رجاء.

ثم علّق (٦/ ٤٣٥) مستظهرًا أنها اسم جنس مُبَيِّنًا العموم في الظالم، فقال: «ويظهر أن ﴿الظّالِم﴾ عامٌّ، وأنّ مقصد الآية تعظيم يوم يتبرأ فيه الخِلّان مِن خِلّانهم الذين أمروهم بالظلم، فلما كان خليل كل ظالم غير خليل الآخر، وكان كل ظالم يسمي رجلًا خاصًّا به عَبَّر عن ذلك بـــ» فلان «الذي فيه الشياع التام، ومعناه: واحد من الناس، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليل يُعِينه ويُحَرِّضه، هذا في الأغلب».

وكذا رجّح ابنُ تيمية (٥/ ١٢) العموم.

وكذا رجّحه ابنُ كثير (١٠/ ٣٠٢)، فقال: «وسواء كان نزولها في عقبة بن أبي معيط، أو في غيره مِن الأشقياء؛ فإنها عامة، كما قال تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا* ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلًا: ﴿يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا﴾ يعني: مَن صَرَفَه عن الهدى، وعَدَلَ به إلى طريق الضلالة مِن دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما».

كما قال تعالى: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا [الأحزاب: 66، 67].

يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28)

أي: يقولُ الظَّالِمُ: يا هلاكي! ليتَني لم أجعَلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي.

عن أبي موسى الأشعريّ رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالِحِ والجليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافِخِ الكِيرِ؛[65] فحامِلُ المسكِ: إمَّا أن يُحْذيَك،[66] وإمَّا أنْ تَبتاعَ منه، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكِير: إمَّا أن يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجِدَ ريحًا خبيثةً)).[67]

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)

(65) الكِير: هو شيءٌ يَنفُخُ فيه الحَدَّادُ؛ لتشتَعِلَ النَّارُ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (231/5).
ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (324/4).
(66) يُحذيَك؛ أي: يُعطيَك.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (178/16)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (231/5).
(67) رواه البخاري (2101)، ومسلم (2628) واللفظ له.

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي.

أي: لقد صَرَفني مَن اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عن القُرآنِ بعد بُلوغِه إليَّ، وصَدَّني عنه.[68]

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا.

أي: قال الله: وإنَّ مِن عادةِ الشَّيطانِ وصِفَتِه المجبولِ عليها: أن يَخذُلَ الإنسانَ الذي يتَّبِعُه، وَيترُكَ إعانَتَه ونَصْرَه.[69]

---

(68) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (442/17)، ((تفسير القرطبي)) (26/13)، ((تفسير ابن كثير)) (108/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (15/19، 16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (47/6).

قال السعدي: (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي حيثُ زيَّن له ما هو عليه مِن الضَّلالِ بخُدَعِه وتسويلِه).

((تفسير السعدي)) (ص: 582).

وقال ابن عاشور: (أي: نهاني عن التدبُّرِ فيه والاستماعِ له بعْدَ أن قارَبْتُ فَهْمَه).

((تفسير ابن عاشور)) (16/19).

(69) قال ابن عطية: (وقوله: وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا يحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ الظَّالِمِ، ويحتمِلُ أن يكونَ ابتداءَ إخبارٍ مِن الله تعالى على جهةِ الدَّلالةِ على وجهِ ضلالتِهم، والتحذيرِ مِن الشيطانِ الذي بلَّغهم ذلك المبلغَ).

((تفسير ابن عطية)) (209/4).

وقال القرطبي: (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا قيل: هذا مِن قَولِ الله لا مِن قَولِ الظالم.

وتمامُ الكلامِ على هذا عندَ قولِه: بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي).

((تفسير القرطبي)) (26/13).

وممَّن قال بذلك: ابنُ أبي زمنين، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور.

واستظهره الشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (259/3)، ((الوسيط)) للواحدي (339/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (319/3)، ((تفسير ابن كثير)) (108/6)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 474)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/19)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (46/6).

كما قال تعالى: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ [إبراهيم: 22].

وقال سُبحانَه: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ [الحشر: 16].

قال السعدي: (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا يزيِّنُ له الباطِلَ، ويقَبِّحُ له الحَقَّ، ويَعِدُه الأمانيَّ، ثم يتخلَّى عنه، ويتبرَّأُ منه، كما قال لجميعِ أتْباعِه حين قُضيَ الأمرُ، وفرَغ اللهُ مِن حسابِ الخَلقِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 582).

وقال ابن عثيمين: (فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الجنسُ، يعني: المؤمنَ أو الكافِرَ، وإنَّما قُلْنا: إنَّ ذلك هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّه كما يُغْوي الكافرين بالكُفرِ، كذلك يُغوي المؤمنينَ بالفِسقِ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 102).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (30-34)

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا
جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ
مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

غريب الكلمات:

مَهْجُورًا: أي: مَتروكًا، والهَجرُ والهِجْرانُ: مُفارقةُ الإنسانِ غَيْرَه، وأصلُ (هجر) هنا: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ.

جُمْلَةً: أي: دَفعةً، مجتمِعًا، في وقتٍ واحدٍ، لا كما أُنزِل نُجومًا مُتَفرِّقةً، ويُقالُ لكلِّ جماعةٍ غيرِ منفصلةٍ: جُمْلَةٌ، وأصلُ (جمل) هنا: تجمُّعٌ.

تَفْسِيرًا: أي: بَيانًا، وأصلُ (فسر): يدُلُّ على بيانِ شَيءٍ وإيضاحِه.

يُحْشَرُونَ: أي: يُجمعونَ، والحشرُ: الجمعُ معَ سَوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجمعِ بكثرةٍ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)

أي: وقال الرَّسولُ مُشتَكيًا في الدُّنيا[70] إلى رَبِّه: يا رَبِّ، إنَّ كُفَّارَ قَومي تَرَكوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه؛ لا يَسمَعونه ولا يتدَبَّرونَه، ولا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلون بأحكامِه![71]

---

(70) ممَّن اختار أنَّه يقولُ ذلك في الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجمهور، والرازيُّ ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والنسفيُّ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (277/3)، ((تفسير ابن عطية)) (209/4).

وممَّن اختار أنَّ هذا القولَ يقولُه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والبغويُّ، والشوكانيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (442/17)، ((تفسير الثعلبي)) (132/7)، ((الوجيز)) (ص: 778) للواحدي، ((تفسير البغوي)) (445/3)، ((تفسير الشوكاني)) (85/4).

(71) اختُلِف في معنى اتخاذهم القرآن مهجورًا؛ فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هجرًا: قولهم فيه السيئ مِن القول، وزعمهم أنّه سحر، وأنه شعر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبر عن المشركين أنهم هجروا القرآن، وأعرضوا عنه، ولم يسمعوا له.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٤٤٤) مستندًا إلى النظائر القولَ الثاني الذي قاله ابن زيد، فقال: «وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أنّ الله أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦]، وذلك هجرهم إيّاه».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٣٦) أنّ الجمهور على أنّ قوله تعالى: ﴿وقالَ الرَّسُولُ﴾ حكاية عن قول رسول الله – ﷺ – في الدنيا، وتَشَكِّيه ما يلقى مِن قومه.

ورجحه، فقال: «وهو الظاهر».

ولم يذكر مستندًا.

ثم ذكر أنّ فرقةً قالت: هو حكاية عن قول ذلك في الآخرة.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (209/4)، ((تفسير القرطبي)) (27/13)، ((تفسير ابن كثير)) (108/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 582)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/19)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (48/6).

مِمَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بَهَجرِ القُرآنِ: أنَّهم يَترُكونَه، ويُعرِضونَ عنه؛ لا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلونَ بما فيه: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/233)، ((تفسير ابن جرير)) (17/444)، ((تفسير السمرقندي)) (2/536)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 778)، ((البسيط)) للواحدي (16/483)، ((تفسير السمعاني)) (4/18)، ((تفسير البغوي)) (3/445)، ((تفسير النسفي)) (2/535)، ((تفسير الخازن)) (3/313)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 474)، ((تفسير الشوكاني)) (4/85)، ((تفسير القاسمي)) (7/425)، ((تفسير السعدي)) (ص: 582)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/48).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/444)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/320).

قال ابنُ كثير: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا يقولُ تعالى مُخبِرًا عن رَسولِه ونَبيِّه محمَّدٍ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه دائمًا إلى يومِ الدِّينِ- أنَّه قال: يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، وذلك أنَّ المُشرِكينَ كانوا لا يُصغُونَ للقُرآنِ ولا يَسمَعونَه، كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت: 26] ، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القُرآنُ أكثَروا اللَّغَطَ والكلامَ في غيرِه؛ حتى لا يَسمَعوه، فهذا مِن هِجرانِه، وتَرْكُ عِلْمِه وحِفْظِه أيضًا: مِن هِجرانِه، وتَركُ الإيمانِ به وتَصديقِه: مِن هِجرانِه، وتَرْكُ تَدَبُّرِه وتَفَهُّمِه: مِن هِجرانِه، وتَركُ العَمَلِ به، وامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ زواجِرِه: مِن هِجرانِه، والعُدولُ عنه إلى غَيرِه؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غناءٍ، أو لَهْوٍ، أو كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غَيرِه: مِن هِجرانِه).

((تفسير ابن كثير)) (6/108).

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى أنَّهم جَعَلوه كالهَذَيانِ، وما لا يُنتفَعُ به مِن القَولِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزجَّاجُ.

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 313)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/66).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا [الفرقان: 30] فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّهم هَجَروه بإعراضِهم عنه، فصار مَهجورًا.

قاله ابنُ زيد.

الثَّاني: أنَّهم قالوا فيه هُجْرًا، أي: قَبيحًا.

قاله مجاهِدٌ.

الثَّالثُ: أنَّهم جَعَلوه هَجْرًا مِنَ الكلامِ، وهو: ما لا نَفْعَ فيه مِنَ العَبَثِ والهَذَيانِ.

قاله ابنُ قُتيبةَ).

((تفسير الماوردي)) (4/143).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ.

أي: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَرَ أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك.

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا [الأنعام: 112].

وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا.

أي: وكفى بربِّك -يا محمَّدُ- هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالِحِ الدِّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ الله إليهم، متوكِّلًا عليه سبحانه.

كما قال تعالى: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي [الأعراف: 178].

وقال سُبحانَه: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ [آل عمران: 160].

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا نزَّل اللهُ على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزِّلْ مُفرَّقًا؟

كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ.

أي: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ –يا محمَّدُ– مُفرَّقًا؛ لنقوِّيَ قَلبَك فتعِيَه وتحفَظَه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا. (72)

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا.

أي: أنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا.

كما قال تعالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا [الإسراء: 106].

---

(72) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٣٧) أن قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل احتمالين: أحدهما: أن يكون مِن قول الكفار إشـــارة إلى التوراة والإنجيل.

والآخر: أن يكون مستأنفًا مِن كلام الله لا من كلامهم.

ورجَّح الاحتمالَ الثاني، فقال: «وهو أولى، ومعناه: كما نزل أردناه فالإشارة إلى نزوله متفرقًا».

ولم يذكر مستندًا.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33)

أي: ولا يَذكُرُ مُشركو قُرَيشٍ شُبهةً أو اقتِراحًا يُعارِضون به الحَقَّ ويَطعنونَ به فيه، إلَّا أنزَلْنا مِن القُرآنِ ما يُبطِلُ شُبهَتَهم، ويَرُدُّ حُجَّتَهم بأحسَنَ مِمَّا جاؤوا به؛ بيانًا ووضوحًا، وفصاحةً وتَفصيلًا.[73]

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

أي: الذين يُجمَعونَ يومَ القيامةِ قَهرًا يُساقونَ مَقلوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ:[74] أولئك شَرٌّ مُستقَرًّا ومُقامًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ طَريقًا عن الحَقِّ.[75]

---

(73) قال ابنُ القيمِ: (التفسيرُ الأحسَنُ: هو الألفاظُ الدالَّةُ على ذلك الحَقِّ، فهي تفسيرُه وبيانُه...

فلا بدَّ مِن أن يكونَ التفسيرُ مُطابقًا للمُفسَّرِ مُفهِمًا له، وكلَّما كان فَهْمُ المعنى منه أوضَحَ وأبيَنَ، كان التفسيرُ أكمَلَ وأحسَنَ؛ ولهذا لا تَجِدُ كلامًا أحسَنَ تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا مِن كلامِ الله سُبحانَه).

((الصواعق المرسلة)) (1/330، 331).

وقال ابن عثيمين: (...

فالمرادُ بالمثَلِ هنا الصِّفةُ، يعني: لا يأتونك بصِفةٍ مِن القَولِ يُريدونَ بها إبطالَ دَعوتِك إلَّا جِئْناك بالحَقِّ، إذَنْ فهُم يأتون بباطلٍ؛ لأنَّه قابَلَ قَولَهم بالحَقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا على أنَّ كُلَّ شُبهةٍ يحتَجُّ بها المكَذِّبون للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي باطِلٌ، ولكِنَّ هذا الباطِلَ باطِلٌ في ذاتِه؛ قد يظهَرُ لبعضِ النَّاسِ بُطلانُه، وقد يَخفى على بعضِ النَّاسِ بُطلانُه).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: 124).

(74) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٣٨) أنّ الجمهور على أنّ هذا المشي على الوجوه حقيقة.

ونقل عن فِرقة أنها قالت بأنّه استعارة للذلة المفرطة، والهوان، والخزي.

(75) قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه: هؤلاء المُشرِكون –يا محمَّدُ– القائلون لك: لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ومَن كان على مِثلِ الذي هم عليه من الكُفرِ بالله، الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، فيُساقُونَ إلى جهنَّمَ: شَرٌّ مُستقَرًّا في الدُّنيا والآخرةِ مِن أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأضَلُّ منهم في الدُّنيا طريقًا).

((تفسير ابن جرير)) (17/448).

عن قَتادةَ، قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يَومَ القيامةِ؟ قال: أليس الَّذي أَمْشاهُ على رِجلَيهِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وجْهِه يَومَ القيامةِ؟)). قال قَتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا.[76]

(76) رواه البخاري (4760)، ومسلم (2806) واللفظُ له.

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (35–40)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ
لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ
ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

غريب الكلمات:

وَزِيرًا: أي: عونًا، مِن الوِزرِ: وهو الحِملُ الثَّقيلُ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ.

فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا: أي: أهلَكْناهم بالعذابِ إهلاكًا، والدَّمارُ: الهلاكُ، والتَّدْميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ، وأصلُ (دمر): يَدُلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغَيرِه.

وَأَعْتَدْنَا: أي: أعدَدْنا، قيل: هو أفْعَلْنا مِن العَتادِ، وهو ادِّخارُ الشَّيءِ قبْلَ الحاجةِ إليه، كالإعدادِ. وقيل: العَتادُ: المُعَدُّ الثابتُ اللازمُ. وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ.

الرَّسِّ: أي: البئرِ العَظيمةِ، أو الأُخدودِ، أو الوادي، وقيل: الرَّسُّ: كلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثباتٍ، وقيل: أصلُه: الأثرُ القليلُ الموجودُ في الشَّيءِ.

وَقُرُونًا: القرونُ: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ غيرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعيَّنةٍ. وقيلَ: مدَّةُ القرنِ مئةُ سنةٍ. وقيل: ثمانونَ. وقيل: ثلاثون. وقيل غيرُ ذلك. والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

تَبَّرْنَا: أي: أهلَكْنا ودمَّرْنا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على كَسرٍ وإهلاكٍ.

نُشُورًا: أي: مَعادًا وبَعثًا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشعُّبِه.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ.

أي: ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ.

وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا.

أي: وجعَلْنا مع موسى أخاه هارونَ مُعينًا له يُقَوِّيه ويؤَيِّدُه.

كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا [مريم: 53].

وقال سُبحانَه: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي *كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى [طه: 25 – 36].

فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36)

فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا.

أي: فقُلْنا لموسى وهارونَ: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه القِبطِ الذين كذَّبوا بأدِلَّتِنا وبراهيننا.(77)

فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا.

أي: فكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى وهارونَ، فأهلَكْناهم بالغَرَقِ إهلاكًا.

كما قال تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 136، 137].

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37)

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً.

أي: وأغرَقْنا قَومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْنا إغراقَهم بالطُّوفانِ عِبرةً للنَّاسِ وعِظةً.

(77) قال البقاعي: (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أي: المرئيَّةِ والمسموعةِ مِن الأنبياءِ الماضينَ قبْلَ إتيانِكما في عِلمِ الشَّهادةِ، والمرئيَّةِ والمسموعةِ منكما بعْدَ إتيانِكما في عِلمِنا).

((نظم الدرر)) (384/13).

كما قال تعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ [الحاقة: 11، 12].

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا.

أي: وأعدَدْنا في الآخرةِ للظَّالِمينَ مِن قومِ نُوحٍ وغيرِهم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا؛ جزاءً على ظُلمِهم.

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38)

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ.

أي: وأهلَكْنا أيضًا عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قومَ صالحٍ، وأصحابَ الرَّسِّ،(78) ودمَّرْناهم لكُفرِهم وتكذيبِهم.

---

(78) اختُلِف في أصحاب الرس؛ فقال قوم: هم من ثمود.

وقال آخرون: بل هي قرية من اليمامة يُقال لها: الفلج.

وقال غيرهم: هم قوم رسُّوا نبيَّهم في بئر.

وقال آخرون: هي بئر كانت تُسَمَّى: الرس.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٤٥٣) مستندًا إلى اللغة القول الأخير الذي قاله ابن عباس مِن طريق العوفي، ومجاهد من طريق ابن يحيى، فقال: «وذلك أنّ الرَّسَّ في كلام العرب: كل محفور؛ مثل: البئر، والقبر، ونحو ذلك».

ثم رجَّح (١٧/ ٤٥٣ – ٤٥٤) أنّ المراد بأصحاب الرس: أصحاب الأخدود الذين ذُكروا في سورة البروج؛ مستندًا إلى القرآن، فقال: «ولا أعلم قومًا كانت لهم قصة بسبب حُفْرَةٍ ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المَعْنِيِّين بقوله: ﴿وأصحاب الرس﴾ فإنّا سنذكر خبرهم –إن شاء الله– إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرًا، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسُّوا نبيهم في حفرة، إلا ما حدثنا ابن حميد ...» وساق أثر القرظي التالي.

ثم علَّق (١٧/ ٤٥٤) بقوله: «غير أنّ هؤلاء في هذا الخبر يذكر محمد بن كعب عن النبي – ﷺ –: أنهم آمنوا بنبيهم، واستخرجوه من حفرته.

فلا ينبغي أن يكونوا المعنيين بقوله: ﴿وأصحاب الرس﴾؛ لأنّ الله أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم تدميرًا، إلا أن يكونوا دُمِّروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجهًا».

كما قال تعالى: وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [العنكبوت: 38].

وقال سُبحانَه: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ [ق: 12 – 14].

وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا.

أي: ودمَّرْنا بين تلك الأُمَمِ الكافرةِ –التي سمَّيْناها– أُمَمًا أُخرى كثيرةً لا يعلَمُها إلَّا اللهُ.(79)

كما قال تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ [الأنعام: 6].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ [إبراهيم: 9].

---

(79) اختُلِف في حدّ القرن، ورجَّح ابنُ كثير (١٠/ ٣٠٨) مستندًا إلى السنة أنّه: الأُمَّة المتعاصرة في الزمن الواحد، فقال: «والأظهر أنّ القرن: هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيلٌ آخر فهم قرن ثان، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله – ﷺ – أنه قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث».

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39)

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ.

أي: وكلُّ الأُمَمِ الكافرةِ التي أهلَكْناها أقَمْنا عليها الحُجَّةَ، ووَضَّحْنا لها الأدِلَّةَ بذِكرِ الأمثالِ؛ لِيَعتبِروا بها ويتَّعِظوا.

وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا.

أي: وكُلُّ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ دمَّرْناها تدميرًا كامِلًا، واستأصَلْناها بالعذابِ.

كما قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [الإسراء: 15 – 17].

وقال سُبحانَه: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ [الأنبياء: 11 – 15].

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ.

أي: ولقد مرَّ كُفَّارُ قُرَيشٍ على قَريةِ قَومِ لُوطٍ الذين أهلَكَهم اللهُ بالحِجارةِ التي أمطَرَها عليهم.

كما قال تعالى: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [الشعراء: 173].

وقال سُبحانَه: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ [الحجر: 74 – 76].

أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا.

أي: أفلم يكُنْ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَرَونَ في أسفارِهم آثارَ عَذابِ اللهِ على قريةِ قَومِ لوطٍ، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا بما حلَّ بأهلِها مِن العذابِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالرَّسولِ، ومُخالفتِهم أوامِرَ اللهِ؟

قال عزَّ وجلَّ: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الصافات: 137، 138].

بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا.

أي: ما كذَّب كفَّارُ قُرَيشٍ بمحمَّدٍ لكونِهم لم يَرَوا ما حلَّ بقومِ لوطٍ، وإنَّما كذَّبوا ولم يعتَبِروا؛ لأنَّهم لا يُؤمِّلون وقوعَ البَعثِ بعْدَ الموتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا في الآخرةِ، ولا يخافونَ عذابًا فيها.

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (41-44)

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ
آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42)
أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

غريب الكلمات:

هَوَاهُ: أي: ما تَميلُ إليه نفْسُه، والهَوَى: مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ.

وَكِيلًا: أي: مانِعًا وحافِظًا، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِك في أمرِك.

تفسير الآيات:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41)

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا.

أي: وإذا رآك –يا محمَّدُ– كُفَّارُ قُرَيشٍ، لا يتَّخِذونَك إلَّا سُخريةً، فهم دائِبونَ على الاستِهزاءِ والسُّخريةِ بك.

أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا.

أي: ويقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ احتقارًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا رسولًا مِن بينِ خَلقِه؟!

كما قال تعالى: وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ [الأنبياء: 36].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [الزخرف: 31].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَهم: أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا [ص: 8].

إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42)

إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا.

أي: يقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: لقد أوشَكَ هذا الرَّسولُ أن يَصرِفَنا ويَصُدَّنا عن عبادةِ أصنامِنا بحُجَجِه وأدِلَّتِه، لولا أن ثبَتْنا على عبادةِ آلهتِنا فتمسَّكْنا بها ولم نَقبَلْ دَعْوتَه!

كما قال تعالى: وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آَلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآَخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ [ص: 6، 7].

وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

أي: وسوف يعلَمُ الكُفَّارُ حين يرَونَ عذابَ اللهِ النَّازِلَ بهم مَن أخطأَ طريقَ الهُدى: هم أم محمَّدٌ الذي دعاهم إلى توحيدِ اللهِ؟!

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43)

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ.

أي: أرأيتَ -يا مُحمَّدُ- مَنِ اتَّبعَ هواه، وانقاد إليه وأطاعَه؟![80]

---

(80) قال ابنُ تيميَّةَ: (أَتْبَاعُ الهوى دَرَجاتٌ: فمنهم المُشـرِكون والذين يَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما يَستحسِنون بلا عِلمٍ ولا بُرهانٍ، كما قال: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ [الفرقان: 43]، أي: يتَّخِذُ إلهَه الذي يعبُدُه وهو ما يهواه من آلهةٍ، ولم يقُلْ: إنَّ هواه نفْسُ إلهِه، فليس كلُّ مَن يهوى شيئًا يَعبُده؛ فإنَّ الهوى أقسامٌ، بل المرادُ: أنَّه جعَلَ المعبودَ الذي يعبُدُه هو ما يهواه، فكانت عبادتُه تابعةً لهوى نفْسِه في العبادةِ؛ فإنَّه لم يَعبُدْ ما يجِبُ أن يُعبَدَ، ولا عبَدَ العبادةَ التي أُمِرَ بها.

وهذه حالُ «أهلِ البدَعِ»؛ فإنَّهم عبَدوا غيرَ الله، وابتدَعوا عباداتٍ زَعَموا أنَّهم يَعبُدون اللهَ بها!).

((مجموع الفتاوى)) (592/10).

وقال البقاعي: (أي: أنَّهم حقَّروا الإلهَ بإنزاله إلى رتبةِ الهوى، فهم لا يَعبُدون إلَّا الهوى، وهو مَيلُ الشـــهوةِ، ورميُ النفْسِ إلى الشَّيءِ، لا شبهةَ لهم أصلًا في عبادةِ الأصنام يرجِعون عنها إذا جَلَت، فهم لا يَنفكُّون عن عبادتِها ما دام هواهم موجودًا...

فالمعنى: أنَّ هذا المذمومَ قصَر نفْسَه على تألُّهِ الهوى، فلا صلاحَ له ولا رشادَ، وقد يتألَّهُ لهوَى غيرِه.

ولو قيل: مَنِ اتخذَ هواه إلهَه؛ لكان المعنى أنَّه قصَــر هواه على الإلهِ، فلا غَيَّ له؛ لأنَّ هواه تابعٌ لأمرِ الإلهِ، وقد يُشـــاركُه في تألُّهِ الإلهِ غيرُه.

قال أبو حيَّان: والمعنى أنَّه لم يتخِذْ إلهًا إلَّا هواه.

انتهى.

فلو عُكِس لقيل: لم يتَّخِذ هوًى إلَّا إلهَه، وهو إذا فعل ذلك فقد ســلَبَ نفْسَــه الهوى فلم يعمَلْ به إلَّا فيما وافَقَ أمرَ إلهِه، ومما يوضِّـــحُ لك انعكاسَ المعنى بالتقديمِ والتأخيرِ أنَّك لو قلتَ: فلانٌ اتَّخَذ عبدَه أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبدَ، ولو قيل: إنه اتَّخَذ أباه عبدَه؛ لكان معناه أنَّه أهان الأبَ، وســـواءٌ في ذلك إتيانُك به هكذا على وِزانِ ما في القرآنِ أو نكَّرْت أحدَهما، فإنَّك لا تجِدُ ذَوقَك فيه يختلِفُ في أنه إذا قدَّم الحقيرَ شرَّفه، وإذا قدَّم الشريفَ حَقَّره، وكذا لو قلتَ: اتَّخَذ إصطبلَه مَسجِدًا، أو صديقه أبًا، أو عكسْتَ، ولو كان التقديمُ بمجرَّدِ العنايةِ مِن غيرِ اختلافٍ في الدَّلالةِ قُدِّم في «الجاثية» الهوى؛ فإنَّ السياقَ والسباقَ له، وحاصِلُ المعنى أنَّه اضـمحلَّ وَصـفُ الإلهِ، ولم يبقَ إلا الهوى، فلو قُدِّم الهوى لكان المعنى أنَّه زال وغَلَبت عليه صِفةُ الإلهِ، ولم يكُنْ ينظُرُ إلَّا إليه، ولا حُكمَ إلَّا له، كما في الطينِ بالنسبة إلى الخزَفِ سواءٌ، واللهُ أعلم).

((نظم الدرر)) (392/13-394).

وقال ابن عاشور: (قوله تعالى: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ إذا أُجرِيَ على الترتيب كان معناه: جعَلَ إلهَه الشيءَ الذي يهوى عبادتَه، أي: ما يُحِبُّ أن يكونَ إلهًا له، أي: لمجرَّدِ الشـــهوةِ، لا لأنَّ إلهَه مســـتحِقٌّ للإلهيَّةِ، فالمعنى: مَن اتَّخَذ ربًّا له محبوبَه؛ فإن الذين عبدوا الأصنامَ كانت شهوتُهم في أن يعبدوها، وليست لهم حُجَّةٌ على استِحقاقِها العبادةَ.

فإطلاقُ إلهِه على هذا الوجهِ إطلاقٌ حقيقيٌّ.

وهذا يناسِــبُ قَولَه قبْلَه: إِنْ كَادَ لَيُضِـلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا [الفرقان: 42] ...، وإذا أُجرِيَ على اعتبار تقديمِ المفعولِ الثاني كان المعنى: مَنِ اتَّخَذ هواه قدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عملًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشهوتِه؛ فكأنَّ هواه إلهَه ...

وهذا المعنى أشمَلُ في الذمِّ؛ لأنَّه يشمَلُ عبادتَهم الأصنامَ، ويشملُ غيرَ ذلك مِن المنكَراتِ والفواحشِ مِن أفعالِهم.

ونحا إليه ابنُ عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحِبُ «الكشاف»، وابنُ عطية.

وكِلا المعنيينِ يَنبغي أن يكونَ مَحملًا للآية).

((تفسير ابن عاشور)) (35/19).

وقال ابن عثيمين: (الصوابُ أنَّ الآيةَ على ظاهرها، وأنَّ الإلهَ هو الهوى، ومعنى ذلك: أنَّه جعل المتبوعَ الهوى، وكونُ الإنسان يتبَعُ غيرَه، سواءٌ هوى نفْسِه أو كونُه يتبعُ غَيرَه، هذا مِن اتخاذِه إلهًا...

كما قال تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [الجاثية: 23].

أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا.

أي: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تكونُ على مَنِ اتَّبع هواه حَفيظًا تمنَعُه مِن الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! كلَّا؛ فليست الهدايةُ والضَّلالةُ موكولتَينِ إليك، وإنَّما عليك البلاغُ.

كما قال تعالى: إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [النحل: 37].

وقال سُبحانَه: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [القصص: 56].

فإذَنْ نقولُ: الآيةُ على ظاهِرِها، يعني: أنَّ الإلهَ هو الهوى نفْسُه، والهوى يقودُه إلى عبادة الشجَرِ والحجَرِ، ويقودُه إلى استحلالِ الزنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غيرِ ذلك؛ فعليه الأَولى جَعْلُ الآيةِ على ظاهِرِها، وألَّا تُصرَفَ إلى المعبودِ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 176).

وقال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فيه ثلاثةُ أقاويلَ: أحدُها: أنَّهم قومٌ كان الرجلُ منهم يَعبُدُ حجَرًا يَستحسِنُه، فإذا رأى أحسَنَ منه عبَدَه وترَك الأوَّلَ.

قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّه الحارثُ بنُ قَيسٍ، كان إذا هوى شيئًا عبَدَه.

حكاه النقاشُ.

الثَّالثُ: أنَّه الذي يتَّبِعُ هواه في كلِّ ما دعا إليه.

قاله الحسَنُ، وقَتادةُ).

((تفسير الماوردي)) (4/146).

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [فاطر: 8].

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ.

أي: بل[81] أتظُنُّ -يا مُحَمَّدُ- أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون الحَقَّ أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! فليسوا كذلك.[82]

---

(81) قال الشنقيطي: (أَمْ في هذه الآيةِ الكريمةِ هي المنقَطِعةُ، وأشهَرُ معانيها أنَّها جامعةٌ بين معنى «بل» الإضرابيَّةِ، واستفهامِ الإنكار معًا، والإضرابُ المدلولُ عليه بها هنا إضرابٌ انتقاليٌّ.

والمعنى: بل أتحسَبُ أنَّ أكثَرَهم يسمَعون أو يعقِلون؟! أي: لا تعتَقِدْ ذلك ولا تظُنَّه؛ فإنَّهم لا يسمعون الحَقَّ ولا يعقِلونَه، أي: لا يُدرِكونه بعُقولِهم).

((أضواء البيان)) (6/59).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 180).

(82) قال القرطبي: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ سماعَ قَبولٍ، أو يفكِّرون فيما تقولُ فيعقلونه؛ أي: هُم بمنزلةِ مَن لا يعقلُ ولا يسمعُ.

وقيل: المعنى: أنَّهم لمَّا لم يَنتفِعوا بما يَسمعون فكأنَّهم لم يَسْمعوا).

((تفسير القرطبي)) (13/36).

وقال ابن عاشور: (المرادُ مِن نفيِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ نفيُ أثرِ السماعِ، وهو فَهْمُ الحقِّ؛ لأنَّ ما يُلقيه إليهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَرتابُ فيه إلَّا مَن هو كالذي لم يسمعْه، وهذا كقولِه تعالى: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ [النمل: 80]).

((تفسير ابن عاشور)) (19/37).

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: 10، 11].

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

أي: ما المُشرِكون إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم!

كما قال تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال سُبحانَه: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 22، 23].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [الأنفال: 55].

وقال تبارك وتعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

وقال جلَّ جلالُه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ [البينة: 6].

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (45–54)

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ
قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ
صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا
(51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا
عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53)
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) وَيَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

غريب الكلمات:

قَبَضْنَاهُ: أي: أزَلْناه ونسَخْناه، وأصلُ (قبض): يدُلُّ على شيءٍ مأخوذٍ.

لِبَاسًا: أي: ساترًا وغِشاءً، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ.

سُبَاتًا: أي: راحةً لأبدانِكم، وقَطعًا لأعمالِكم، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على القَطعِ.

نُشُورًا: أي: يَقَظةً وحياةً، يَنتشِرونَ فيه، ويَبتَغونَ الرِّزقَ، ويَتصرَّفونَ في حاجاتِهم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه.

بُشْرًا: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإخْبارِ بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشَّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ.

وَأَنَاسِيَّ: الأناسيُّ: جَمعُ إنسيٍّ، وهو مرادِفُ إنسانٍ، مِثلُ كُرسيٍّ وكَراسيَّ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وكلِّ شَيءٍ خالَفَ طريقةَ التَّوحُّشِ.

صَرَّفْنَاهُ: قسَّمْناه، يعني المطرَ: يَسقي أرضًا، ويترُكُ أرضًا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

كُفُورًا: أي: جُحُودًا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ.

مَرَجَ: أي: خلَطَ أو خلَّى بيْنهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ.

فُرَاتٌ: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ، قِيل: سُمِّي الماءُ الحُلوُ فُراتًا؛ لأنَّه يَفْرُتُ العطشُ، أي: يقطَعُه ويكسِرُه.

أُجَاجٌ: أي: شَديدُ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ.

بَرْزَخًا: أي: حاجِزًا ومانِعًا؛ لئلَّا يَختلطَا، وكلُّ حاجزٍ بيْنَ شَيئينِ فهو برزخٌ.

وَحِجْرًا مَحْجُورًا: أي: حَرامًا مُحَرَّمًا على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَه ويُفْسِدَه، أو مانِعًا مَمْنوعًا، وأصلُ (حجر): المَنعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ.

نَسَبًا: النَّسبُ: اشتِراكٌ مِن جهةِ أحدِ الأبوَينِ، أي: أن يجتمعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، وقيل: نَسَبًا أي: ذا نسبٍ، وهو ما لا يَحِلُّ نكاحُه، وأصلُ (نسب): اتِّصالُ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه النَّسَبُ؛ سُمِّيَ لِاتِّصالِه ولِلاتِّصالِ به.

وَصِهْرًا: الصِّهرُ: قرابةُ النِّكاحِ، وأهلُ بَيتِ المرأةِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على قُربى.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45)

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا.

أي: ألم تَرَ -[83] يا محمَّدُ- إلى هيئةِ بسْطِ رَبّك الظّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ،[84] ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ ممدودًا دائِمًا لا يتحَرَّكُ بزيادةٍ ولا نُقصانٍ؟![85]

---

(83) قال الشوكاني: (هذه الرُّؤيةُ إمَّا بَصَريَّةٌ، والمرادُ بها: ألم تُبصِرْ إلى صُنعِ رَبّك؟ أو ألم تُبصِرْ إلى الظّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟ وإمَّا قَلبيَّةٌ، بمعنى العِلمِ؛ فإنَّ الظِّلَّ مُتغيّرٌ، وكُلُّ مُتغيّرٍ حادثٌ، ولكُلِّ حادثٍ مُوجِدٌ.

قال الزَّجَّاجُ: ألم تَرَ: ألم تَعلَمْ، وهذا مِن رؤيةِ القَلبِ).

((تفسير الشوكاني)) (92/4).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ القلبِ، والمراد: ألمْ تَعلَمْ: الفرَّاءُ، والزجَّاجُ، وابنُ عطية، وأبو حيان، والعليمي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (36/1)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (70/4)، ((تفسير ابن عطية)) (212/4)، ((تفسير أبي حيان)) (560/2)، ((تفسير العليمي)) (29/5).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ بصَريَّةٌ، أي: ألمْ تَنظُرْ: البيضاويُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (126/4)، ((تفسير النسفي)) (540/2)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 476)، ((تفسير أبي السعود)) (222/6)، ((تفسير الألوسي)) (26/10)، ((تفسير ابن عاشور)) (39/19).

وجمَع السعديُّ بيْن القولينِ، فذكَر أنَّ المعنى: (ألم تشاهِدْ ببصرِك وبصيرتِك).

((تفسير السعدي)) (ص: 584).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 189).

(84) رجَّح ابنُ عطية (٦/ ٤٤٢) أنّ مدَّ الظل هو بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس.

مستندًا إلى الواقع، فقال: «ومدُّ الظل: هو بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس، ومِن بعد مغيبها مدة يسيرة. فإنّه في هذين الوقتين ظِلٌّ ممدود على الأرض مع أنه نهار، وفي سائر أوقات النهار ظلال متقطعة، والمدُّ والقبض مُطَّرِد فيها، وهو عندي المراد في الآية.».

ثم انتقد ما أفادته الآثار من أن مَدَّ الظِّلَّ هو ما بين الفجر إلى طلوع الشمس -مستندًا للواقع-، فقال: «وهذا مُعْتَرَض بأنّ ذلك في غير نهار، بل في بقايا الليل، فلا يقال له: ظِلٌّ».

(85) ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالظِّلِّ: مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والبَغوي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (460/17، 462)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (70/4)، ((تفسير البغوي)) (447/3)، ((تفسير الرسعني)) (330/5)، ((تفسير القرطبي)) (37/13)، ((تفسير العليمي)) (29/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 584).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ، وسعيدُ بنُ جُبَير، وأبو العاليةِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، ومسروقٌ، والحسَنُ، وقتادةُ، وأبو مالِكٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وأبو سِنانٍ الشَّيبانيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/460)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (8/2701).

قال الواحديُّ: (والمفَسِّرون جميعًا قالوا في معنى الظِّلِّ هاهنا: إنَّه الظِّلُّ مِن وَقتِ طُلوعِ الفجرِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ).

((البسيط)) (16/517).

ونَسَب النَّسَفيُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ.

يُنظر: ((تفسير النسفي)) (2/540).

قال البغوي: (وهو ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، جعَلَه ممدودًا؛ لأنَّه ظِلٌّ لا شَمسَ معه، كما قال في ظِلِّ الجنَّةِ: وَظِلٍّ مَمْدُودٍ [الواقعة: 30] لم يكُنْ معه شمسٌ).

((تفسير البغوي)) (3/447).

واعترض ابنُ عطيَّةَ على هذا المعنى بأنَّ ذلك في غيرِ نهارٍ، بل في بقايا اللَّيلِ، وهذا لا يُقالُ له ظِلٌّ، واختار أنَّ المرادَ بمَدِّ الظِّلِّ بإطلاقٍ هو بيْنَ أوَّلِ الإسفارِ إلى بُزوغِ الشَّمسِ، ومِن بَعدِ مَغيبِها مُدَّةً يَسيرةً؛ فإنَّه في هذينِ الوقتَينِ على الأرضِ كُلِّها ظِلٌّ ممدودٌ على أنَّها نهارٌ، وفي سائرِ أوقاتِ النَّهارِ ظِلالٌ مُتقطِّعةٌ، والمَدُّ والقَبضُ مُطَّرِدٌ فيها.

قال: (وهو عندي المرادُ في الآيةِ.

واللهُ أعلَمُ).

((تفسير ابن عطية)) (4/212).

وقيل: المرادُ به: ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظِّلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَضُ شيئًا فشيئًا.

وهذا ظاهِرُ اختيار ابن القيِّمِ، وابنِ عاشور.

يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (3/273، 274)، ((تفسير ابن عاشور)) (19/39-41).

وقيل: المرادُ بالظلِّ هنا: اللَّيلُ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو القاسم النيسابوريُّ، والبقاعي.

يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (2/613)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/397).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على جميعِ هذه المعاني: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: 191-192).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالظِّلِّ على الخِلافِ ثلاثةُ آراءٍ: إمَّا أنَّه ما بينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طلوعِ الشَّمسِ...

أو أنَّه اللَّيلُ كُلُّه، ويكونُ مَدُّه تطويلَه ثمَّ ينقُصُ، ففي هذا من قدرةِ الله تعالى: تغيُّرُ الفُصولِ بسبَبِ طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه.

أو أنَّ المرادَ به ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثمَّ يُقبَضُ شيئًا فشيئًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى لَجَعَلَهُ سَاكِنًا، والسُّكونُ هنا يختلفُ معناه بحسَبِ اختلافِ معنى الظلِّ؛ فإذا قُلْنا: المرادُ بالظلِّ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، كان المرادُ بالسكونِ أنَّ الشمسَ تخرجُ دَفعةً واحدةً بدون أن يكونَ ظِلُّها شَيئًا فشَيئًا، وإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ به

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ؛ فهو يَتبَعُها، ويتفاوَتُ بحَركتِها.(86)

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (46)

أي: ثمَّ نَقَصْنا ذلك الظِّلَّ الممدودَ بسُهولةٍ وتدريجٍ.(87)

اللَّيلُ، كان المرادُ بسكونِه أن يبقَى الليلُ دائمًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وإذا قلنا: إنَّ المرادَ بالظِّلِّ ظلُّ الشاخصِ، صار المرادُ بسكونِه أنَّ الشمسَ لا تتحرَّكُ، وتبقَى في مكانٍ واحدٍ، ويكونُ الظلُّ ساكنًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ...

[و] ما دام أنَّ هذه المعانيَ لا تتنافى، فالواجِبُ أن تُحمَلَ الآيةُ على الجميعِ، وهذه قاعدةٌ ...

قرَّرها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجِبُ أن تُحمَلَ على كلِّ هذه المعاني؛ لأنَّ كلامَ الله سُبحانه وتعالى لا يُحيطُ به شيءٌ).

((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: 191، 192).

(86) قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جعْلُ الشَّمسِ دَليلًا على الظِّلِّ فيه دليلٌ ليس على مجرَّدِ وجودِ الظِّلِ، بل دليلٌ على ما فيه مِن المصالحِ، وهي أيضًا مدلولٌ عليها به؛ فالشَّمسُ الآنَ يُستدَلُّ بها على ما في الظلِّ مِن المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلِّ على ما فيها من المصالحِ أيضًا؛ لأنَّ غيبَ الشَّمسِ عن الأرضِ قد يؤثِّرُ، وبقاءَها دائمًا على وجهِ الأرضِ قد يؤثِّرُ، مِثلُ قَولِ الله سُبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: 71، 72]، فكونُ هذا دليلًا على هذا، وهذا دليلًا على هذا: هو أيضًا مِن رحمةِ الله؛ لأنَّه لولا الشمسُ ما عرَفْنا فائدةَ الظِّلِّ، ولولا الظلُّ ما عرَفْنا فائدةَ الشَّمسِ، فكُلٌّ منهما في الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ).

((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: 194).

(87) اختُلِف في معنى قوله: ﴿يسيرا﴾.

فقال بعضهم: معناه: سريعًا.

وقال آخرون: قبضًا خفيًّا.

وجمع ابنُ جرير (١٧/ ٤٦٥) بين القولين، فقال: «واليسير: الفعيل من اليسر، وهو السهل الهين في كلام العرب.

فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك يتوجه لما رُوي عن ابن عباس ومجاهد؛ لأنّ سهولة قبض ذلك قد تكون بسرعة وخفاء».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٤٢) أنّ قوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يحتمل القولين، ويحتمل أن يريد: سهلًا قريب المتناول.

يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: 192)، ((تفسير ابن جرير)) (464/17)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (56/1، 57)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (273/3)، ((تفسير ابن كثير)) (114/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 584)، ((تفسير ابن عاشور)) (42/19).

قال الواحدي: (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ الكنايةُ تعودُ إلى الظِّلِّ الذي سَبَق ذِكرُه، وهو: ظِلُّ الغَداةِ بإجماعِ المفَسِّرينَ).

((البسيط)) (523/16).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: قَبَضْنَاهُ: الظِّلُّ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والماوَرْدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (236/3)، ((تفسير السمرقندي)) (540/2)، ((تفسير الثعلبي)) (140/7)، ((تفسير الماوردي)) (147/4)، ((تفسير السمعاني)) (23/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (323/3)، ((تفسير القرطبي)) (37/13)، ((تفسير الخازن)) (315/3)، ((تفسير ابن كثير)) (114/6)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 194).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2703/8)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (261/6).

وقيل: المعنى: قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ.

ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (464/17)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (5232/8).

وقال البقاعي: (إِلَيْنَا أي: إلى الجهةِ التي نُريدُها، لا يقدِرُ أحَدٌ غَيرُنا أن يحوِّلَه إلى جهةٍ غَيرِها).

((نظم الدرر)) (398/13).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: يَسِيرًا أي: على مَهلٍ، قَبضًا خفيفًا، جُزءًا فجُزْءًا، وشيئًا بعْدَ شَيءٍ، لا دَفعةً واحدةً: السمرقنديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن جُزي، والقاسمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (540/2)، ((تفسير الزمخشري)) (283/3)، ((تفسير الخازن)) (315/3)، ((تفسير ابن جزي)) (84/2)، ((تفسير القاسمي)) (430/7)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 194).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: (وقولُه: قَبْضًا يَسِيرًا أي: خفيًّا؛ لأنَّ الظلَّ بعْدَ غروبِ الشَّمسِ لا يذهَبُ كُلُّه دَفعةً واحدةً، ولا يُقبِلُ الظلامُ كُلُّه جملةً، وإنما يَقبِضُ الله جلَّ وعزَّ ذلك الظِّلَّ قَبضًا خفيًّا شَيئًا بعدَ شَيءٍ، ويُعقِبُ كُلَّ جزءٍ منه يَقبِضُه بجزءٍ مِن سوادِ الليلِ حتى يذهبَ كُلُّه.

فدلَّ الله عز وجلَّ بهذا الوصفِ على قدرتِه ولطفِه في معاقبتِه بيْن الشمسِ والظلِّ واللَّيلِ؛ لمصالحِ عِبادِه وبلادِه.

وبعضُهم يجعَلُ قبْضَ الظِّلِّ عندَ نسخِ الشَّمسِ إيَّاه، ويجعلُ قولَه: قَبْضًا يَسِيرًا أي: سهلًا خفيفًا عليه.

وهو وجهٌ، غيرَ أنَّ التفسيرَ الأوَّلَ أجمَعُ للمعاني، وأشبَهُ بما أراد).

((تأويل مشكل القرآن)) (ص: 192).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: يَسِيرًا: أي: خفيًّا سريعًا: ابنُ جرير، ومكِّي.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (464/17)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (5232/8).

وقال ابنُ جرير: (وقَولُه: ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا يقولُ تعالى ذِكرُه: ثمَّ قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبضًا خَفيًّا سَريعًا بالفَيءِ الذي نأتي به بالعَشِيِّ).

((تفسير ابن جرير)) (464/17).

وقال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا: الظِّلُّ ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ أو ما بيْنَ وَقتِ الإسفارِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ، فإنَّه يُقبَضُ هذا الظِّلُّ شَيئًا فشَيئًا، لا يزالُ النُّورُ يَسطَعُ تدريجيًّا حتى تطلُعَ الشَّمسُ.

هذه واحِدةٌ.

وإذا قُلْنا: المرادُ به اللَّيلُ، فهو أيضًا يُقبَضُ شَيئًا فشَيئًا، يعني: لا يكونُ اللَّيلُ في هذا اليومِ اثنَتَيْ عَشْرةَ ساعةً، ويكونُ تِسعَ ساعاتٍ في اليومِ الذي يليه، وإنَّما يُقبَضُ شيئًا فشيئًا.

كذلك إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالظِّلِّ ظِلُّ الشَّاخِصِ، فهو نفسُ الشَّيءِ؛ إنَّما يتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا، وليس في الآيةِ إشكالٌ سِوى قَولِه: ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا، إِلَيْنَا هذه الغايةُ فيها إشكالٌ؛ لأنَّه كان مِن المُمكِنِ أن يَقتَصِرَ على قولِه: «ثمَّ قَبَضْناه قَبضًا يَسيرًا»، فما الحِكمةُ مِن هذه الغايةِ في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا؟ بعضُهم يرى أنَّ الضَّميرَ في قولِه: قَبَضْنَاهُ أي: الشَّمسَ، باعتِبارِها دَليلًا، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا، أي: قَبَضْنا هذا الدَّليلَ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا.

وعلى كلِّ حالٍ يُوجَدُ احتِمالُ أنَّه يَجعَلُ المرادَ بقولِه: قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا يعني: الدَّليلَ، أي: الشَّمسَ، ويكونُ المرادُ بالقَبضِ إليه ما أشار إليه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه في حديث أبي ذرٍّ: «فإنَّها تذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ» [البخاري (3199) ومسلم (250)].

ويوجَدُ احتِمالٌ ثالِثٌ ذهب إليه الزمخشريُّ، وقال: إنَّ المرادَ بالقَبضِ هنا ما ذكَرَه اللهُ بقَولِه: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ [التكوير: 1، 2]، وإنَّ المرادَ به قَبضُ هذه النَّيِّراتِ -الشَّمسِ وغَيرِها- يومَ القيامةِ، وجَعَل اليسيرَ ليس صفةً للقَبضِ، يعني: أنَّه يكونُ شَيئًا فشَيئًا، بل هو صِفةٌ للفِعلِ، يعني أنَّه يسيرٌ عليه، كقَولِه تعالى: ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: 44]، لكنِ الأخيرُ بَعيدٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنما يمتَنُّ بذلك على أمرٍ يُدرِكُ الناسُ فائدتَه في الدُّنيا، وتمامَ قُدرةِ الله تعالى فيه، فيكونُ على هذا إمَّا أن يُقالَ: إنَّ الغايةَ التي ذكرها اللهُ سبحانه وتعالى إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن تصرُّفِه وحْدَه، وأنَّ الأمرَ إليه وحْدَه لا إلى غَيرِه، فيكونُ دليلًا على عَظَمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، أو أنَّ المرادَ بالقَبضِ إليه أنَّ الشَّمسَ تُقبَضُ إلى اللهِ، بمعنى أنَّها تذهَبُ وتسجُدُ تحت العَرشِ، كما جاء به الحديثُ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم).

((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: 195، 196).

أي: واللهُ هو الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ- غِطاءً وسِترًا يَستُركم ويُغشِّيكم بظَلامِه.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا [النبأ: 10].

وقال سُبحانَه: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [الليل: 1].

وَالنَّوْمَ سُبَاتًا.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّومَ قاطِعًا لحركتِكم وأشغالِكم، فتستريحُ به أبدانُكم.(88)

---

(88) قال الشنقيطي: (وأمَّا جَعلُه لهم النَّومَ سُباتًا، فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الرَّاحةُ مِن تَعَبِ العَمَلِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ يَقطَعُ العمَلَ النَّهاريَّ، فينقَطِعُ به التَّعبُ، وتحصُلُ الاستراحةُ كما هو معروفٌ...).

((أضواء البيان)) (6/60).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الراحةُ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدينِ المحليُّ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/466)، ((تفسير السمرقندي)) (2/541)، ((تفسير الثعلبي)) (7/140)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5234)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 781)، ((تفسير السمعاني)) (4/23)، ((تفسير البغوي)) (3/448)، ((تفسير الرازي)) (24/465)، ((تفسير القرطبي)) (13/38)، ((تفسير النسفي)) (2/541)، ((تفسير الخازن)) (3/315)، ((تفسير ابن كثير)) (6/114)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 476)، ((تفسير ابن عاشور)) (19/45).

وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: يَسبُتُ النائمُ حتَّى لا يَعقِلَ كأنَّه مَيتٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/236)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/484).

قال الزمخشريُّ: (والسُّباتُ: الموتُ.

والمَسبوتُ: الميتُ؛ لأنَّه مقطوعُ الحياةِ).

((تفسير الزمخشري)) (3/283).

وقال الشنقيطيُّ: (وإيضاحُ كلامِه: أنَّ النُّشورَ هو الحياةُ بعد الموتِ...، وعليه فقولُه: وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا، أي: حياةً بعد الموتِ، وعليه فالموتُ هو المعبَّرُ عنه بالسُّباتِ في قولِه: وَالنَّوْمَ سُبَاتًا، وإطلاقُ الموتِ على النَّومِ معروفٌ في القرآنِ العظيمِ).

((أضواء البيان)) (6/61) وقال ابن عاشور: (وفسَّر الزمخشريُّ السُّباتَ بالموتِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، ناظرًا في ذلك إلى مُقابلَتِه بقولِه: وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا).

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا [النبأ: 9].

وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّهارَ حياةً بعْدَ نومِكم الذي يُشبِهُ الموتَ، ويَقَظةً تنتَشِرون في ضيائِه لطَلَبِ الأرزاقِ.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ [الإسراء: 12].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [غافر: 61].

وقال عزَّ وجلَّ: وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا [النبأ: 11].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ - ﷺ - إذا أراد أن ينامَ قال: باسمِك اللَّهمَّ أموتُ وأَحيَا. وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعْدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ)).(89)

((تفسير ابن عاشور)) (45/19).

وقال البقاعي: (وَالنَّوْمَ سُبَاتًا أي: نومًا وسكونًا وراحةً، عبارة عن كونِه موتًا أصغرَ طاويًا لِما كان مِن الإحساسِ، قطعًا عمَّا كان مِن الشُّعورِ والتقلُّبِ، دليلًا لأهلِ البصائرِ على الموتِ).

((نظم الدرر)) (399/13).

(89) رواه البخاري (6324).

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.

أي: واللهُ وحدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ فتبَشِّرُ النَّاسَ بمَجيءِ السَّحابِ ونُزولِ المطَرِ قبْلَ أن يفجَأَهم بنُزولِه.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ بُشْرًا أي: تُبشِّرُ بالمطَرِ.[90]

2- قراءةُ نَشْرًا، قيل: المرادُ: يُرسِلُ الرِّياحَ حياةً، أي: تحيا بها البلادُ الميتةُ. وقيل: أي: تهبُّ مِن كُلِّ وجهٍ لجمعِ السَّحابِ الممطِرةِ. وقيل: النَّشْرُ مِن الرِّياحِ: الطَّيِّبةُ اللَّيِّنةُ التي تُنشئُ السَّحابَ.[91]

3- قراءةُ نُشْرًا جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السَّحابَ وتَبسُطُها في السَّماءِ، وقيل: لَيِّنةً طيِّبةً. وقيل: متفرِّقةً، وهي الرِّياحُ التي تهبُّ مِن كُلِّ ناحيةٍ.[92]

---

(90) قرأ بها عاصم.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/269، 270).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/409)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (5/345).
(91) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/269، 270).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 157)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (5/345)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 285).
(92) قرأ بها ابن عامر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/269، 270).

4- قراءةُ نُشُرًا جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السحابَ، وتبسطُها في السماءِ. وقيل: متفرقةً.[93]

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا.

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ، الطَّاهِرَ في نفْسِه، المطَهِّرَ لِغيرِه.

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49)

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا.

أي: لِنُحيِيَ بالمطَرِ أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها.

كما قال تعالى: وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج: 5].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: 39].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/409)، ((تفسير البغوي)) (2/199)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (5/346).

(93) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/269، 270).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/409)، ((تفسير البغوي)) (2/199)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (5/346).

وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا.

أي: ونُسقِيَ بالمطَرِ كَثيرًا مِمَّا خلَقْنا مِن الأنعامِ والنَّاسِ، فيَشرَبون مِن ماءِ المطَرِ، ويَسقُونَ به زُروعَهم.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ [النحل: 10].

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا.

أي: ولقد قسَّمْنا ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ؛ لأجْلِ أن يتذكَّروا ويعتَبِروا.[94]

---

(94) قال أبو حيان: (والضَّميرُ في صَرَّفْنَاهُ عائدٌ على الماءِ المنَزَّلِ مِن السَّماءِ، أي: جعَلْنا إنزالَ الماءِ تَذكِرةً بأن يُصرِّفَه عن بعضِ المواضِعِ إلى بعضٍ، وهو في كلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدٍ، قاله الجمهورُ؛ منهم: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، فعلى هذا التأويلِ إِلَّا كُفُورًا هو قولُهم بالأنواءِ والكواكِبِ، قاله عِكرمةُ.

وقيل: كُفُورًا على الإطلاقِ لَمَّا ترَكوا التذكُّرَ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا: عائدٌ على القرآنِ وإن لم يتقدَّمْ له ذِكرٌ؛ لوضوحِ الأمرِ، ويعضِّدُه: وَجَاهِدْهُمْ بِهِ؛ لتوافُقِ الضَّمائرِ.

وعلى أنَّه للمطَرِ يكونُ بِهِ للقرآنِ).

((تفسير أبي حيان)) (8/116).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: صَرَّفْنَاهُ يعودُ على المطرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/237)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/485)، ((تفسير ابن جرير)) (17/468)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/71)، ((تفسير الثعلبي)) (7/140)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5236)، ((الوسيط)) للواحدي (3/342)، ((تفسير الرازي)) (24/473)، ((تفسير أبي حيان)) (8/116)، ((تفسير ابن كثير)) (6/115)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/62).

ونسَب السمعانيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ.

فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (25/4).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ، وعِكْرِمةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (468/17)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2706/8)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (264/6).

قال الشنقيطيُّ: (المعنى: ولقد صرَّفْنا ماءَ المطرِ بيْن الناسِ؛ فأنزَلْنا مطرًا كثيرًا في بعضِ السِّنينَ على بعضِ البلادِ، ومنَعْنا المطرَ في بعضِ السِّنينَ عن بعضِ البلادِ، فيَكثُرُ الخِصبُ في بعضِها، والجدبُ في بعضِها الآخَرِ.

وقولُه: لِيَذَّكَّرُوا، أي: صرَّفْناه بيْنَهم لأجْلِ أن يَتذكَّروا، أي: يتذكَّرَ الذين أخصبَتْ أرضُهم لكثرةِ المطرِ نعمةَ الله عليهم، فيَشكُروا له، ويتذكَّرَ الذين أجدبت أرضُهم ما نزَل بهم مِن البلاءِ، فيُبادِروا بالتَّوبةِ إلى الله جلَّ وعلا؛ لِيَرحَمهم ويَسقيَهم).

((أضواء البيان)) (63/6).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ الله تعالى غيَّرَ هذا المطرَ بالنسبةِ للنَّاسِ، ووزَّعه بيْنهم ما بيْن مُقِلّ ومُستكثِرٍ؛ فمِنهم مَن يكثُرُ المطرُ عندَه، ومنهم مَن يقِلُّ، هذا بالنِّسبةِ للبينيَّةِ، كذلك أيضًا صرَّفه الله سبحانه وتعالى بيْنهم بالنِّسبةِ لكلِّ أحدٍ؛ أحيانًا يكونُ المطرُ كثيرًا في عامٍ، وقليلًا في عامٍ...

لِيَذَّكَّرُوا أي: نِعمةَ الله فيما إذا نزَلَ عليهم، ولِيَذَّكَّرُوا يتَّعِظوا ويَذكُروا ما هم عليه مِن المعاصي والآثامِ فيما إذا لم ينزِلْ، وكذلك أيضًا لِيَذَّكَّرُوا بذلك قدرةَ الله، حيث صرَفَ في محلٍّ دونَ محلٍّ.

فالمهمُّ أنَّ تصريفَ هذا المطرِ في محلٍّ دونَ محلٍّ، أو في سَنةٍ دون سَنةٍ هذا لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ لِتَذكُّرِ الإنسانِ؛ إما تذَكُّر النعمةِ إذا كان ناسيًا، وإما تذكُّر النِّقمةِ ومعاصيه إذا كان ممتنعًا، وإما تذكُّر القدرةِ حينما يَعرفُ أنَّه في مكانٍ يكونُ غَزيرًا، وفي مكانٍ يكونُ قليلًا).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: 214، 215).

وقيل: المرادُ بقولِه: صَرَّفْنَاهُ: أي: القرآنَ.

وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والثعالبيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (57/13)، ((تفسير الثعالبي)) (212/4).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عطاءٌ الخُراسانيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2707/8).

وقيل: صَرَّفْنَاهُ أي: هذا القولَ، وهو ذكرُ إنشاءِ السَّحابِ، وإنزالِ المطرِ.

وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والقاسميُّ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (285/3)، ((تفسير القاسمي)) (431/7).

أي: فلمْ يتذكَّرْ أكثَرُ النَّاسِ بتَصريفِ اللهِ للمطَرِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ باللهِ، وجُحودِ نِعَمِه، وإنكارِ قُدرتِه وحِكمتِه.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 99].

وقال سُبحانَه: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ [الواقعة: 82].

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنِيِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله – ﷺ – صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثرِ السَّماءِ[95] كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبَلَ على النَّاسِ، فقال: هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبحَ مِن عِبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ[96] كذا وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمنٌ بالكوكَبِ)).[97]

---

(95) إثرِ السَّماءِ أي: بعْدَ نُزولِ مطرٍ.
والإثرُ: هو ما يعقُبُ الشيءَ، والسماءُ: المطرُ، وأُطلِق عليه سماءً؛ لكونِه ينزلُ مِن جهةِ السماءِ، وكلُّ جهة علوٍّ تُسمَّى سماءً.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (99/5)، ((فتح الباري)) لابن حجر (523/2).

(96) مُطِرنا بنَوءِ كذا: أي: بسُقوطِ نَجمٍ وطُلوعِ نظيرِه، (والأنواءُ): ظهورُ الكواكبِ، أو منازل القَمرِ في السَّماءِ، وكانت العربُ تزعُمُ أنَّ بسقوطِ المنزلةِ وطلوعِ رقيبِها يكونُ مطرٌ، ويَنسبونه إليها، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا.
وإنَّما سُمِّيَ نَوءًا؛ لأنَّه إذا سقطَ السَّاقِطُ منها بالمَغربِ ناء الطَّالع بالمشرِقِ، أي: نهض وطلَعَ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (2415/6) (2906/7).

(97) رواه البخاري (846)، ومسلم (71) واللفظ له.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)

أي: ولو شِئْنا لجعَلْنا في كُلِّ مدينةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويَدْعوهم إليه، ولكِنَّنا خَصَصْناك –يا محمَّدُ– بالرِّسالةِ إلى جميعِ النَّاسِ.

كما قال تعالى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام: 19].

وقال سُبحانَه: وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا [الأنعام: 92].

وقال تبارك وتعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [الأعراف: 158].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ قَبلي:... وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)).[98]

فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52)

فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ.

أي: فلا تُطِعِ الكافرينَ –يا محمَّدُ– فيما يَدْعونَك إليه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو في تَركِ شَيءٍ مِمَّا أُرسِلْتَ به.

كما قال تعالى: وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [الكهف: 28].

---

(98) رواه البخاري (335)، ومسلم (521).

وقال سُبحانَه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا [الإنسان: 23، 24].

وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا.

أي: وجاهِدِ الكافرينَ –يا محمَّدُ– بالقُرآنِ جِهادًا شَديدًا بكُلِّ طاقتِك بلا فُتورٍ؛ نُصرةً للحَقِّ، وقمعًا للباطِلِ.

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53)

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي أرسَل البَحرينِ وخلَّاهما، لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ.[99]

(99) قال الشنقيطيُّ: (اعلمْ أنَّ لفظةَ: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقينِ: الأوَّل: مرَج بمعنى: أرسَلَ وخلَّى، ...
وعلى هذا، فالمعنى: أرسَل البحرينِ وخلَّاهما، لا يختلِطُ أحَدُهما بالآخَرِ.
والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط، ومنه قولُه تعالى: فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ [ق: 5]، أي: مختلِطٍ.
فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلحُ في جميعِها.
وقولُه: هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ، يعني به: ماءَ الآبارِ والأنهارِ والعيونِ في أقطارِ الدُّنيا.
وقولُه: وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، أي: البحرُ المِلحُ؛ كالبحرِ المُحيطِ وغيرِه مِنَ البحارِ الَّتي هي مِلحٌ أُجاجٌ، وعلى هذا التفسيرِ فلا إشكالَ.
وأمَّا على القولِ الثَّاني –بأنَّ مرَج بمعنى خلَط– فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنَهما حاجزٌ مِن قُدرةِ اللهِ تعالى، وهذا محقَّقُ الوُجودِ في بعضِ البلادِ...
فسبحانَه جلَّ وعلا ما أعْظَمَه، وما أكمَلَ قُدرتَه!).
((أضواء البيان)) (6/65).

هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ.

أي: أحدُهما شَديدُ الحَلاوةِ، والآخَرُ شَديدُ الملوحةِ والمرارةِ.

كما قال تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ [فاطر: 12].

وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا.

ممَّن اختار في الجملةِ المعنى الأوَّلَ، أي: أرسَلَهما وخلَّاهما مُتجاورينِ مُتلاصِقينِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والقاسميُّ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/287)، ((تفسير الرازي)) (24/474)، ((تفسير البيضاوي)) (4/128)، ((تفسير النسفي)) (2/544)، ((تفسير أبي السعود)) (6/225)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 477)، ((تفسير القاسمي)) (7/432).

ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/72).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ -أنَّ مرَج بمعنى خلَط-: ابنُ جرير، ومكّي، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والخازنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/471)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5237)، ((تفسير السمعاني)) (4/26)، ((تفسير البغوي)) (3/452)، ((تفسير الخازن)) (3/316).

قال ابن عطية: (والذي أقولُ به في الآيةِ: إنَّ المقصدَ بها التَّنبيهُ على قدرةِ الله تعالى، وإتقانِ خَلقِه للأشياءِ في أنْ بَثَّ في الأرضِ مِياهًا عَذبةً كثيرةً مِن أنهارٍ وعُيونٍ وآبارٍ، وجعَلَها خِلالَ الأُجاجِ وجعَل الأُجاجَ خِلالَها، فتَلْقَى البحرَ قد اكتنَفَتْهُ المياهُ العَذبةُ في ضَفَّتيهِ، وتَلْقى الماءَ العَذبَ في الجزائرِ ونَحوِها قد اكتنَفَه الماءُ الأُجاجُ، فبَثُّها هكذا في الأرضِ هو خلطُها، وهو قولُه: مَرَجَ).

((تفسير ابن عطية)) (4/214).

وقال القرطبيُّ: (مرَج: خلَّى وخلَط وأرسَل).

((تفسير القرطبي)) (13/58).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (4/95).

أي: وجعَلَ اللهُ بقُدرتِه بيْنهما حاجِزًا،[100] ومانِعًا حصينًا يمنَعُهما منعًا شديدًا مِن الامتِزاجِ والاختِلاطِ ببَعضِهما.[101]

---

(100) نقل ابنُ جرير (١٧/ ٤٧٥) اختلافًا عن السلف في تفسير قوله: ﴿وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا﴾ على قولين:

الأول: أنّه جعل بينهما يبسًا.

الثاني: أنّه جعل بينهما حاجِزًا مِن قدرته سبحانه؛ فلا يُغيِّر أحدُهما الآخر ولا يفسده.

وقد رجّح ابنُ جرير مستندًا إلى ظاهر الآية القول الثاني، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الله -تعالى ذِكْرُه- أخبر في أول الآية أنّه مرج البحرين، والمرج: هو الخلط في كلام العرب.

على ما بينتُ قبلُ، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مَرْجٌ للبحرين، وقد أخبر -جلَّ ثناؤه- أنّه مرجهما، وإنّما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد هذا العذب الفرات مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه، فأمّا إذا كان كل واحد منهما في حيّز عن حيّز صاحبه فليس هناك مَرْجٌ، ولا هناك مِن الأعجوبة ما يُنَبَّه عليه أهلُ الجهل به من الناس ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العبر، والمواعظ، والحجج البوالغ».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٤٦) في الآية أقوالًا، ثم علّق بقوله: «والذي أقول به في الآية: إنّ المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى، وإتقان خلقه للأشياء في أن بثَّ في الأرض مياهًا عذبة كثيرة مِن أنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، فتلقّى البحر قد اكْتَنَفَتْه المياهُ العذبة في ضفتيه، وتلقى الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه ماء الأجاج فبثها هكذا في الأرض هو خلطها، وهو قوله: ﴿مَرَجَ﴾، ومنه: مريج، أي: مختلط مشتبك، ومنه: ﴿في أمر مريج﴾ [ق: ٥].

والبحران يريد بهما: جميع الماء العذب، وجميع الماء الأجاج، كأنه قال: مرج نوعي الماء.

والبرزخ والحجر: هو ما بين البحرين من الأرض واليبس.

قاله الحسن.

ومنه القدرة التي تمسكها مع قرب ما بينهما في بعض المواضع».

(101) قال ابن كثير: (وقولُه: وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا أي: بينَ العذْبِ والمالِحِ بَرْزَخًا أي: حاجِزًا، وهو اليَبَسُ مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (117/6).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: معنَى «حِجْرًا مَحْجُورًا» ...

أنَّها كلمةٌ يقولُها المُتَعَوِّذُ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِن البحرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِن صاحِبِه، ويقولُ له هذا القولَ.

وقيلَ: حَدًّا محدودًا.

وقيلَ: المرادُ مِن البحرِ العذْبِ: الأنهارُ العظامُ؛ كالنّيلِ والفُراتِ وجَيْحونَ، ومِن البحرِ الأُجاجِ: البحارُ المشهورةُ، والبرزخُ بيْنَهما: الحائلُ مِن الأرضِ.

كما قال تعالى: وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا [النمل: 61].

وقال سُبحانَه: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ [الرحمن: 19، 20].

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي خلَقَ مِن المَنِيِّ إنسانًا ذكَرًا أو أُنثى.(102)

فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا.

أي: فجعَلَ اللهُ الإنسانَ ذا نَسَبٍ، وذا صِهرٍ.(103)

وقيلَ: معنَى «حجْراً محْجُوراً» حَرامًا مُحَرَّمًا أنْ يَعْذُبَ هذا المالِحُ بالعذْبِ، أو يُمَلَّحَ هذا العذْبُ بالمالِحِ.
((تفسير الشوكاني)) (95/4).
وتقدَّم ذِكرُ المعنى الثَّاني وهو اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العذبِ في مجرًى واحدٍ، دونَ امتزاجِ أحدِهما بالآخَرِ.

(102) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٤٧) في قوله: ﴿خلق من الماء بشرا﴾ احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿مِنَ الماءِ﴾ إما أن يريد: أصل الخلقة؛ لأنّ كل حيّ مخلوق من الماء، وإما أن يريد: نُطَف الرِّجال».
ثم رجّح الأولَ مستندًا إلى الأفصح لغة بقوله: «والأولُ أفصحُ وأبين».

(103) قال ابنُ عطية (٦/ ٤٤٧): «والنسب والصهر معنيان يعُمّان كلَّ قُربى تكون بين كل آدميين، فالنسب: هو أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو في أم قرُب ذلك أو بعُد ذلك.
والصهر: هو تواشج المناكحة، فقرابة الزوجة هم الأَخْتان، وقرابة الزوج هم الأحْماء، والأصهار يقع عامًّا لذلك كله».
يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (151/4)، ((تفسير البغوي)) (452/3)، ((تفسير ابن كثير)) (117/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 585)، ((تفسير ابن عاشور)) (55/19).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالنَّسبِ سبعةُ أصنافٍ مِن القرابةِ يجمعُها قولُه: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ [النساء: 23]، وأنَّ المرادَ بالصهرِ خمسٌ، يجمعُها قولُه تعالى: وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي

وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا.

أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ [النساء: 23] : مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (237/3)، ((تفسير ابن جرير)) (476/17).

ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (3/ 343).

وقيل: المرادُ بالنَّسَبِ: الذي لا يحِلُّ نِكاحُه، والمرادُ بالصهر: الذي يحِلُّ نكاحُه؛ وممَّن ذهب إلى ذلك في الجملةِ: الفرَّاءُ –وقصَر الصِّهرَ على النَّسبِ الذي يحلُّ نكاحُه، كبناتِ العمِّ والخالِ وأشباهِهنَّ– والكرماني، وابن الجوزي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (270/2)، ((تفسير الكرماني)) (819/2)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: 265).

وقيل: المعنى: فقسَّم البشَرَ قِسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكورًا يُنسَبُ إليهم، فيقال: فلانُ بنُ فلان، وفلانةُ بنتُ فلان.

وذواتِ صِهرٍ، أي: إناثًا يُصاهَرُ بهنَّ.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والقاسميُّ، والألوسيُّ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (287/3)، ((تفسير الرازي)) (475/24)، ((تفسير البيضاوي)) (128/4)، ((تفسير النسفي)) (544/2)، ((تفسير القاسمي)) (433/7)، ((تفسير الألوسي)) (35/10).

وقيل: النَّسبُ أن يجتمعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، والصِّهرُ هو الاختِلاطُ بالنكاحِ.

وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (214/4)، ((تفسير ابن جزي)) (85/2).

وقال القرطبي: (النَّسَبُ والصِّهرُ مَعنيانِ يعُمَّانِ كُلَّ قُربى تكونُ بينَ آدميَّينِ).

((تفسير القرطبي)) (59/13).

وقال ابن عاشور: (نَسَبًا وَصِهْرًا: مصدران سمِّي بهما صِنفانِ مِن القرابة، على تقدير: ذا نسَبٍ وصِهرٍ، وشاع ذلك في الكلامِ.

والنسَبُ: لا يخلو مِن أُبوَّةٍ وبُنوةٍ وأُخوَّةٍ لأولئك، وبُنُوَّةٍ لتلك الأُخوَّة.

وأمَّا الصِّهرُ فهو: اسمٌ لِما بيْن المرءِ وبيْن قَرابةِ زوجِه وأقاربِه مِن العَلاقةِ، ويُسمَّى أيضًا مُصاهرةً؛ لأنَّه يكونُ مِن جهتينِ، وهو آصرةٌ اعتباريَّةٌ تتقومُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهرُ الرجلِ قَرابةُ امرأتِه، وصِهرُ المرأةِ قَرابةُ زَوجِها؛ ولذلك يقال: صاهَرَ فُلانٌ فُلانًا: إذا تزوَّجَ مِن قرابته ولو قرابةً بعيدةً، كقرابة القبيلةِ.

وهذا لا يخلو عنه البَشَرُ المتزوِّجُ وغيرُ المتزوِّجِ).

((تفسير ابن عاشور)) (55/19).

وقال ابن عثيمين: (مِن كمالِ قُدرةِ الله سُبحانه وتعالى أنْ خلَقَ من الماءِ بَشَرًا، وقسَّمه إلى قسمينِ؛ هما: النَّسبُ، والصِّهرُ، أي الزوجيَّةُ، وهذه أسبابُ الصِّلةِ بين الناس؛ إمَّا صلةٌ بالوِلادة: النَّسَبُ، أو بالنِّكاحِ: وهو المصاهَرةُ).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: 224) بتصرف يسير.

أي: ولم يَزَلْ ربُّك -يا محمَّدُ- مُتَّصِفًا بكَمالِ القُدرةِ، ومِن ذلك قُدرتُه البالِغةُ على خَلقِ ما يشاءُ.(104)

(104) قال ابن عاشـــور: (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا، أي: عظيمَ القُدرةِ، إذ أوجَد مِن هذا الماءِ خَلقًا عَظيمًا صــاحِبَ عَقلٍ وتَفكيرٍ، فاختَصَّ باتِّصالِ أواصِرِ النَّسَبِ وأواصِر الصِّهرِ، وكان ذلك أصلَ نظامِ الاجتِماعِ البشريِّ لتكوينِ القبائِلِ والشعوبِ وتعاوُنِهم ممَّا جاء بهذه الحضارةِ المرتقيةِ مع العصورِ والأقطارِ).

((تفسير ابن عاشور)) (56/19).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (55–62)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ
سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا
(58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا
تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا
مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

غريب الكلمات:

ظَهِيرًا: أي: مُظاهِرًا ومُعاوِنًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

خَبِيرًا: أي: عالِمًا، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، والخبيرُ في أسماءِ اللهِ: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطَةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ.

نُفُورًا: أي: هَرَبًا، وذَهابًا عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ.

بُرُوجًا: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ، وقيل: البُروجُ: الكواكبُ العِظامُ، وأصلُ البرجِ: القَصرُ والحِصْنُ، وبه سُمِّي بروجُ السماءِ لمنازِلها المختصةِ بها.

خِلْفَةً: أي: مُتعاقِبَينِ؛ يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعْدَ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تَنفَعُهم بشَيءٍ، ولا تضرُّهم أبدًا، ويتركونَ عِبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم، وأنعَمَ عليهم، ويَملِكُ نَفعَهم وضَرَّهم.

وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا.

أي: وكان الكافِرُ مُعينًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ اللهِ؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه![105]

---

(105) نقل ابنُ جرير (١٧/ ٤٧٨ – ٤٧٩ بتصرف) في تفسير قوله تعالى: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾ قولين: الأول: أنّ معناه: مُعينًا.

وهو المرويُّ عن السلف كما في الآثار.

الثاني: أنّ معناه: هيّنًا.

ولم ينسبه لأحد من السلف، فقال: «وقد كان بعضُهم يُوَجِّه معنى قوله: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾، أي: وكان الكافر على ربه هينًا».

ووجّهه بقوله: «وهو من قول العرب: ظهرت به فلم ألتفت إليه.

إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه، وكأنّ الظهير كان عنده: فعيل، صُرِف مِن مفعول إليه مِن مظهور به.

كأنه قيل: وكان الكافر مظهورًا به».

وبنحوه ابنُ عطية (٦/ ٤٤٨ بتصرف)، ثم قال: «فيكون معنى الآية على هذا التأويل احتقار الكفرة».

ووجّه ابنُ عطية القول الأول بقوله: «فعلى أنّ الظهير: المعين؛ تكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك مِن أنّ الكُفّار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة والشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه».

كما قال تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: 76].

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56)

أي: وما أرسَلْناك –يا محمَّدُ– إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَ مَن آمنَ بك واتَّبعَك بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتُنذِرَ مَن كفَرَ بك وكذَّبَك وعصاك بالشَّقاءِ والعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57)

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– لِمَن أرسلْتُك إليهم: أنا لا أسألُكم على تبليغِ رسالةِ اللهِ إليكم مالًا.

كما قال تعالى: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ [الأنعام: 90].

وقال سُبحانه: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ [الطور: 40].

إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا.

وقد رجّح ابنُ جرير مستندًا إلى السياق القولَ الأول، وعلَّل ذلك بقوله: «والقول الذي قلناه هو وجه الكلام، والمعنى الصحيح؛ لأنّ الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر عن عبادة هؤلاء الكفار مِن دونه، فأولى الكلام أن يتبع ذلك ذمه إيّاهم، وذم فعلهم دون الخبر عن هواهم على ربهم، ولَمّا يجرِ لاستكبارهم عليه ذكر؛ فيتبع بالخبر عن هواهم عليه».

أي: لكنْ مَن شاء مِنكم أن يتَّخِذَ طَرِيقًا يقَرِّبُه إلى اللهِ، فليفعَلْ، ومِن ذلك أن يُنفِقَ مِن مالِه في سبيلِ اللهِ.(106)

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58)

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.

أي: واعتَمِدْ –يا محمَّدُ– في دينِك ودُنياك على اللهِ الذي له الحياةُ الكامِلةُ الدَّائِمةُ التي لا موتَ معها أبدًا، وفوِّضْ أمورَك كُلَّها إليه وحْدَه لا إلى غيرِه، لا سيَّما في مُواجهةِ المُشرِكين بالإنذارِ، وتبليغِهم رسالةَ الله إليهم.(107)

كما قال تعالى: فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ [هود: 123].

---

(106) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعديُّ.
يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابنُ كثير: (إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا أي: طريقًا ومَسلَكًا ومَنهجًا يُقتَدى فيها بما جِئتُ به).
((تفسير ابن كثير)) (118/6).
وقال البقاعي: (إِلَّا مَنْ أي: إلَّا أجرَ مَن شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ أي: يكَلِّفَ نفْسَه ويخالِفَ هواه، ويجعَلَ له إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا؛ فإنَّه إذا اهتدى بهدايةِ رَبِّه، كان لي مِثلُ أجرِه، لا نفْعَ لي من جهتِكم إلَّا هذا، فإنْ سمَّيتم هذا أجرًا فهو مطلوبي، ولا مِريةَ في أنَّه لا يَنقُصُ أحدًا شيئًا مِن دنياه، فلا ضررَ على أحدٍ في طَيِّ الدُّنيا عنِّي، فأفاد هذا فائدتينِ؛ إحداهما: أنَّه لا طمعَ له أصلًا في شيءٍ يَنقُصُهم، والثانيةُ: إظهارُ الشَّفَقةِ البالِغةِ بأنَّه يَعتَدُّ بمنفعتِهم الموصلةِ لهم إلى ربِّهم ثوابًا لنَفْسِه).
((نظم الدرر)) (412/13).
(107) قال البقاعي: (الَّذِي لَا يَمُوتُ أي: فلا ضياعَ لِمَن توكَّل عليه أصلًا، بل هو المتولِّي لمصالحِه في حياتِه وبعْدَ مماتِه، ولا تلتَفِتْ إلى ما سِواه بوجهٍ؛ فإنَّه هالِكٌ).
((نظم الدرر)) (413/13).

وقال سُبحانه: وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [المزمل: 8، 9].

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ.

أي: ونزِّهْ -يا محمَّدُ- ربَّك عن النَّقائِصِ والأندادِ والشُّرَكاءِ، مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، شاكرًا له على نِعَمِه.(108)

---

(108) قال ابن جُزَي: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ أي: قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه.
والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، ومعنى بحَمْدِه: أي: بحَمْدِه أقولُ ذلك.
ويحتمِلُ أن يكونَ المعنى: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه؛ فهو أمرٌ بأن يَجمَعَ بينَ التَّسبيحِ والحمدِ).
((تفسير ابن جزي)) (85/2).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه: ابنُ عطية، وابنُ جزي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (216/4)، ((تفسير ابن جزي)) (85/2).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه -أي أن يقولَ: سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ لِلهِ-: جلالُ الدينِ المحليُّ.
يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: 477).
وقال ابن كثير: (اقرِنْ بيْنَ حمدِه وتسبيحِه).
((تفسير ابن كثير)) (119/6).
وممَّن اختار أنَّ المعنى: نزِّهْه عن صفاتِ النُّقصانِ، مُثنيًا عليه بنعوتِ الكمالِ: البيضاويُّ، وأبو السعود.
يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (225/4)، ((تفسير أبي السعود)) (226/6).
ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (413/13)، ((تفسير الألوسي)) (37/10).
وممَّن فسَّر التَّسبيحَ بالتَّنزيهِ أيضًا: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (62/13)، ((تفسير الشوكاني)) (97/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (59/19).
وممَّن اختار أنَّ المعنى: اعبُدْهُ شُكرًا منك له على نِعَمِه: ابنُ جرير، ومكِّي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (480/17)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (5243/8).
وممَّن اختار أنَّ المعنى: صَلِّ له شكرًا على نِعَمِه: البغويُّ، والخازنُ.
يُنظر: ((تفسير البغوي)) (453/3)، ((تفسير الخازن)) (317/3).
وقال الثعلبي: (اعبُدْه وصَلِّ له شكرًا منك له على نِعَمِه).

وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا.

أي: وحَسْبُك -يا محمَّدُ- ربُّك الخَبيرُ بذُنوبِ عبادِه، فلا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها يومَ القيامةِ؛ فليس عليك هُداهم، ولا حِفظُ أعمالِهم، فذلك كلُّه بيَدِ اللهِ وحْدَه.

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

أي: توكَّلْ على الحيِّ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في سِتَّةِ أيامٍ.(109)

((تفسير الثعلبي)) (142/7).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 585).

وقال العليمي: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ صلِّ له شكرًا، ونَزِّهْه عن صفات النقصان).

((تفسير العليمي)) (36/5).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا أمْرُه بالتَّسبيحِ فهو تنزيهُ الله عمَّا لا يليقُ به، وأوَّلُ ذلك الشَّركةُ في الإلهيَّة، أي: إذا أهمَّك أمرُ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الإسلامِ، فعليك نفْسَك، فنَزِّهِ اللهَ).

((تفسير ابن عاشور)) (59/19).

(109) قال ابن كثير: (والسِّتَّةُ الأيامِ هي: الأحدُ، والاثنينُ، والثُّلاثاءُ، والأربعاءُ، والخميسُ، والجُمُعةُ -وفيه اجتمَع الخَلْقُ كلُّه، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلام.

واختلَفوا في هذه الأيَّامِ: هل كلُّ يومٍ منها كهذه الأيَّامِ كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ؟ أو كلُّ يومٍ كألْفِ سَنةٍ كما نصَّ على ذلك مجاهِدٌ، والإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ، ويُروى ذلك مِن روايةِ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فأمَّا يومُ السَّبتِ فلمْ يقَعْ فيه خَلْقٌ؛ لأنَّه اليَومُ السابعُ، ومنه سُمِّيَ السبت، وهو القطعُ).

((تفسير ابن كثير)) (426/3).

ممَّن اختار أنَّها مِقدارُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبه للجمهورِ-، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين.

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ.

أي: ثمَّ علا اللهُ الرَّحمنُ على عرشِه بعْدَ خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه.[110]

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/288)، ((تفسير ابن عطية)) (3/104)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/414)، ((تفسير الألوسي)) (6/62)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: 235، 236).

قال الألوسي عن هذا القول: (وهو الأنسبُ بالمقام؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الباهرةِ بخَلقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ في مِثلِ تلك المُدَّةِ اليسيرةِ، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرِفُه).

((تفسير الألوسي)) (6/62).

وقال ابنُ عثيمين عن القَولِ بأنَّ الأيامَ الستَّةَ هي مِن أيامِ الدُّنيا: (هذا هو القَولُ المشهورُ، وهو الراجحُ، وأمَّا مَن قال: في ستةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الآخرةِ، وإنَّ اليومَ كألْفِ سَنةٍ، أو مَن قال: إنَّ المرادَ بالأيَّامِ مُطلقُ الزمَنِ، أي: في لحظاتٍ- فذلك أيضًا قولٌ مرجوحٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما يخاطِبُ النَّاسَ بما يَعرِفونَ. فالصَّحيحُ أنَّ المرادَ ستةُ أيامٍ مِن أيامِ الدُّنيا).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: 235، 236).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غروبِها، وإن لم يكُنْ هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ، إلَّا أنَّ اللهَ قبْلَ أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ يعلمُ زمَنَ الأيَّامِ قبْلَ وُجودِ الشَّمسِ).

((العذب النمير)) (3/344، 345).

وقال الزمخشري: (أمَّا الدَّاعي إلى هذا العَدَدِ -أعني: السِّتَّةَ دونَ سائرِ الأعدادِ- فلا نشُكُّ أنَّه داعي حِكْمةٍ؛ لعِلْمنا أنَّه لا يُقدِّر تقديرًا إلَّا بداعي حِكمةٍ، وإن كنَّا لا نطَّلِعُ عليه، ولا نهتدي إلى معرفتِه).

((تفسير الزمخشري)) (3/288).

وقال البيضاوي: (ولعلَّ ذِكرَه زيادةُ تقريرٍ؛ لكونه حقيقًا بأن يُتوكَّلَ عليه؛ من حيثُ إنَّه الخالِقُ للكُلِّ، والمتصَرِّفُ فيه، وتحريضٌ على الثباتِ والتأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى -مع كمالِ قدرتِه، وسرعةِ نفاذِ أمرِه في كلِّ مُرادٍ- خلَقَ الأشياءَ على تُؤَدةٍ وتدرُّجٍ).

((تفسير البيضاوي)) (4/129).

(110) قال السعدي: (ثُمَّ اسْتَوَى بعْدَ ذلك عَلَى الْعَرْشِ الذي هو سَقفُ المخلوقاتِ وأعلاها، وأوسَعُها وأجمَلُها).

((تفسير السعدي)) (ص: 585).

وقال أبو عمرو الداني: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ تامٌّ، إذا ارتفع الرَّحْمَنُ بالابتداءِ، وجُعِل الخبرُ فيما بعْدَه.

فإنْ رُفِع بتقدير: هو الرَّحمنُ؛ كان الوقفُ على الْعَرْشِ كافيًا.

وإن جُعِل بدَلًا مِنَ المُضمَرِ الذي في اسْتَوَى لم يَكفِ الوقفُ على الْعَرْشِ، وكفى على الرَّحْمَنُ).

((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: 149).

فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا.

أي: فاسألْ(111) عن الرَّحمنِ(112) عالِمًا يُخبِرْك عنه وعن عَظَمتِه، وعن خَلقِه وسُلطانِه، وأفعالِه وصفاتِ كَمالِه.

قال ابنُ جرير (١٧/ ٤٨٠): «وقوله: ﴿في ستة أيام﴾ قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة. ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ وعلا عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل».

(111) قيل: الخطابُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسلامُ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (481/17).

وقال الواحديُّ: (هذا الخِطابُ ظاهرُه للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه).

((الوسيط)) (344/3).

وقال أيضًا: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا فاسأَلْ -أيُّها الإنسانُ الذي لا تَعلَمُ صِفتَه- خَبيرًا يُخبِرْك بصِفاتِه).

((الوجيز)) (ص: 782).

وقال أبو السعود: (وما قيل مِن أنَّ التَّقديرَ: إنْ شككتَ فيه فاسأَلْ به خَبيرًا، على أنَّ الخطابَ له صلَّى الله عليه وسلَّم والمرادَ غيرُه؛ بمعزِلٍ مِن السَّدادِ، بل التَّقديرُ: إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسألْ معنيًّا بِهِ خَبِيرًا).

((تفسير أبي السعود)) (227/6).

(112) قيل: المرادُ بالخبير: اللهُ تعالى.

وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، وأبو السعود، والسعديُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (27/4)، ((تفسير أبي السعود)) (227/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 585)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: 244).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وابنُ جُرَيجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (481/17)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2715/8)، ((تفسير ابن كثير)) (120/6).

قال أبو السعود: (خَبِيرًا عظيمَ الشأنِ، محيطًا بظواهِرِ الأمورِ وبواطنِها، وهو اللهُ سبحانه؛ يُطلِعْك على جليَّةِ الأمرِ.

وقيل: فاسأَلْ به مَن وَجَدَه في الكُتُبِ المتقَدِّمةِ؛ لِيَصْدُقَك فيه).

((تفسير أبي السعود)) (227/6).

كما قال تعالى: وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: 14].

وقال السعدي: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا يعني بذلك: نَفْسَه الكريمةَ؛ فهو الذي يعلَمُ أوصافَه وعَظَمَته وجَلالَه، وقد أخبَرَكم بذلك، وأبانَ لكم مِن عظمَتِه ما تَسعَدونَ به مِن معرفتِه، فعَرَفه العارفون وخضَعوا لجلالِه، واستكبَرَ عن عبادتِه الكافِرونَ واستنكَفوا عن ذلك).

((تفسير السعدي)) (ص: 585).

وقيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/119).

قال ابن كثير: (أي: استعلِمْ عنه مَن هو خبيرٌ به عالِمٌ به، فاتَّبِعْه واقتَدِ به، وقد عُلِم أنَّه لا أحدَ أعلَمُ بالله ولا أخبَرُ به مِن عبدِه ورسولِه محمدٍ -صلواتُ الله وسلامُه على سيِّدِ ولدِ آدمَ- على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرة، الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى؛ فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبَرَ به فهو صِدقٌ، وهو الإمامُ المحكَّمُ الذي إذا تنازَعَ الناسُ في شيءٍ وجَب ردُّ نزاعِهم إليه، فما يوافِقُ أقوالَه وأفعالَه فهو الحقُّ، وما يخالِفُها فهو مردودٌ على قائِلِه وفاعِلِه، كائنًا مَن كان؛ قال الله تعالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ [النساء: 59]).

((تفسير ابن كثير)) (6/119).

وقيل: المرادُ: أهلُ العلمِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ الأنباري.

يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) (2/809).

قال ابن جزي: (الأظهرُ أنَّ المُرادَ: اسأَلْ عنه مَن هو خبيرٌ عارفٌ به، وانتصَب خَبِيرًا على المفعوليَّةِ، وهذا الخبيرُ المَسؤولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والعلماءُ، وأهلُ الكتابِ).

((تفسير ابن جزي)) (2/85).

وقال الرسعني: (إمَّا أن يُرادَ بالخِطابِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو غيرُه بخِطابِه؛ كقولِه تعالى: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ [يونس: 94]:

فإن كان المرادُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فالخبيرُ هو جبريلُ عليه السَّلامُ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ.

وقال مجاهدٌ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ، على معنى: فسَلْني؛ فإنِّي الخبيرُ.

وإن أُريدَ به غيرُه فالمعنى: فاسأَلْ رجُلًا خبيرًا، أي: عالمًا بما تسألُه عنه.

وقيل: الضميرُ في بِهِ يرجِعُ إلى ما دَلَّ عليه فَاسْأَلْ، وهو السؤالُ...

المعنى: فاسأَلْ بسؤالِك خبيرًا أيُّها الإنسانُ).

((تفسير الرسعني)) (5/342).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا.

أي: وإذا قيلَ لأولئك المُشركين: اسجُدوا للرَّحمنِ الذي أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ، ودفَعَ عنكم النِّقَمَ دونَ غيرِه؛ قالوا متعَجِّبين وكافرين بالله ومُنكِرين لاسمِه الرَّحمنِ: لا نعرِفُ الرَّحمَنَ! أنطيعُك -يا محمَّدُ- فنَسجُدُ لله وحدَه لمجرَّدِ قَولِك وأمْرِك بذلك؟!

كما قال تعالى: وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ [الرعد: 30].

وقال سُبحانَه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [الإسراء: 110].

وَزَادَهُمْ نُفُورًا.

أي: وزاد المُشرِكينَ أمْرُهم بالسُّجودِ للرَّحمنِ كراهيةً وفِرارًا مِن الحَقِّ.

كما قال تعالى: وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا [الإسراء: 46].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الزمر: 45].

وقال سُبحانَه: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المدثر: 49 - 51].

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61)

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا.

أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمُلَت أوصافُه، وكثُرتْ خيراتُه، ودامتْ وثبتَتْ بَرَكاتُه، فهو الذي جعَلَ في السَّماءِ منازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما.(113)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ [الحجر: 16].

---

(113) للسلف في تفسير قوله: ﴿بروجا﴾ قولان: الأول: أنها النجوم الكبار.

الثاني: أنها القصور التي في السماء.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٧/ ٤٨٤) مستندًا إلى اللغة القولَ الثاني، فقال: «لأن ذلك في كلام العرب ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [النساء: ٧٨]، وقول الأخطل:

كأنها برجُ رُوميّ يُشَيِّده بانٍ بِجص وآجُرّ وأحجار

يعني بالبرج: القصر».

وقال ابنُ عطية (٦/ ٤٥٢): «والبروج هي التي علمتها العرب بالتجربة، وكل أمة مُصحِرة، وهي الشهور عند اللغويين وأهل تعديل الأوقات، وكل برج منها على منزلتين وثلث مِن منازل القمر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿والقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، والعرب تسمي البناء المرتفع المستغني بنفسه: برجًا، تشبيهًا ببروج السماء».

وذكر ابنُ عطية القول الأول، وعلّق عليه قائلًا: «حكاه الثعلبي عن أبي صالح، وهذا غير ما بيناه إلا أنه غير مُخلَّص».

وذكر ابن عطية (٦/ ٤٥٢) في الآية قولًا ثالثًا لم ينسبه لأحد مِن السلف: أنّ البروج قصور في الجنة.

ثم انتقده مستندًا إلى الدلالة العقلية بقوله: «وأما القول بأنها قصور في الجنة فقول يحط غرض الآية في التنبيه على أشياء مُدرَكات تقوم بها الحُجَّة على كل مُنكِر لله أو جاهل به».

وذكر ابنُ كثير (١٠/ ٣١٨) القولين، ثم رجّح مستندًا إلى النظائر الأول، فقال: «والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ [الملك: ٥]؛ ولهذا قال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا﴾ وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وجعلنا سراجا وهاجا﴾ [النبأ: ١٣]».

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ [الملك: 5].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [البروج: 1].

وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا.

أي: وخلَقَ اللهُ في السَّماءِ شَمسًا مُشرِقةً تَبعَثُ النُّورَ والحرارةَ، وقمرًا مُضيئًا في اللَّيلِ.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا [يونس: 5].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا [نوح: 16].

وقال عزَّ وجلَّ: وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا [النبأ: 13].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ سُرُجًا على الجَمعِ، قيل: المرادُ بها: ما أضاءَ مِن النُّجومِ، وقيل: المرادُ بها: الشَّمسُ، وإنَّما جاءت بصيغةِ الجَمعِ؛ لِتَعظيمِها.(114)

---

(114) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ.

يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (2/334).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 266)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 512)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/417).

قال ابن زنجلة: (ومَن قرأ سُرُجًا: الشمسُ والقمرُ والكواكِبُ العِظامُ معها).

((حجة القراءات)) (ص: 512).

2- قِراءةُ سِرَاجًا على الإفرادِ، والمرادُ: الشَّمسُ.[115]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً.

أي: واللهُ هو الذي جعَل اللَّيلَ والنَّهارَ بحيث يَخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، فهُما يَتعاقبانِ أبدًا، ولا يجتَمِعانِ.[116]

وقال السمعاني: (على هذه القراءةِ قد دخَل القمرُ في السُّرُجِ، إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكرِ لنوعِ فَضيلةٍ له، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ [الرحمن: 68]).

((تفسير السمعاني)) (28/4).

وقال ابن عثيمين: (فعَطفُ القمَرِ المنيرِ على السُّرجِ مِن بابِ عَطفِ المتغايرين، لا مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالقمَرُ ليس من السُّرُجِ؛ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا [نوح: 16] ، فالشَّمسُ -بلا شكٍّ- سراجٌ، ولكنَّ القمرَ نورٌ؛ فعليه لا يكونُ منها).

((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: 263).

وقال البِقاعي: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ بصيغةِ الجمعِ؛ للتَّنبيهِ على عَظَمتِه في ذلك، بحيثُ إنَّه أعظَمُ مِن ألوفِ ألوفٍ مِن السُّرجِ، فهو قائمٌ مقامَ الوصفِ).

((نظم الدرر)) (417/13).

(115) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (334/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 266)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 512).

(116) اختُلِفَ في تفســـير قوله: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أنّ كل واحد منهما يخالف الآخر في اللون، فالليل أسود والنهار أبيض.

الثاني: أنّ كل واحد منهما يخلف الآخر، إذا ذهب هذا جاء هذا.

الثالث: أنّ كل واحد منهما خلفًا للآخر، إذا فات العبدُ عملًا في أحدهما قضاه في الآخر.

كما قال تعالى: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا [الأعراف: 54].

وقال سُبحانَه: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [إبراهيم: 33].

وقال عزَّ وجلّ: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: 40].

لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا.

أي: جعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلفةً لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ ويتفكَّرَ في اختِلافِهما، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه، فيَعبُدُه فيهما، ويَستَدرِكُ ما فاته في أحَدِهما فيَعمَلُه في وقتِ الآخَرِ.(117)

وقد ذكر ابنُ جرير (١٧/ ٤٨٧ بتصرف) هذه الأقوال، ثم علّق بقوله: «والخلفة: مصدر، والعرب تقول: خلف هذا من كذا خلفة، وذلك إذا جاء شيءٌ مكان شيء ذهب قبله، كما قال الشاعر:

ولها بالماطرون إذا أكل النمل الذي جمعا

خِلْفةٌ حتى إذا ارتبعت سكنت من جلَّق بِيَعا

وكما قال زهير:

بها العين والآرام يمشين خِلْفة وأطْلاؤها ينهضن من كل مَجْثَمِ

يعني بقوله: يمشين خلفة: تذهب منها طائفة، وتخلف مكانها طائفة أخرى.

وقد يحتمل أنّ زهيرًا أراد بقوله: خلفة: مختلفات الألوان، وأنها ضروب في ألوانها وهيئاتها.

ويحتمل أن يكون أراد أنها تذهب في مشيها كذا، وتجيء كذا».

ورجّح ابنُ عطية (٤/ ٢١٧ ط: دار الكتب العلمية) القول الثاني، ولم يذكر مستندًا.

(117) قال ابن عاشور: (التذكُّر: تفعُّلٌ مِن الذِّكر، أي: تكَلُّفُ الذِّكر.

والذِّكرُ جاء في القرآن بمعنَى التأمُّل في أدلَّةِ الدِّينِ، وجاء بمعنى: تذكُّرِ فائتٍ أو مَنسيٍّ، ويجمَعُ المعنيَينِ استِظهارُ ما احتَجب عن الفِكرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (65/19).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها)).[118]

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((مَن نام عن حِزبِه أو عن شَيءٍ منه، فقرأَه فيما بيْنَ صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ الظُّهرِ؛ كُتِب له كأنَّما قَرأَه مِنَ اللَّيلِ)).[119]

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – كان إذا فاتَتْه الصَّلاةُ مِن اللَّيلِ مِن وَجَعٍ أو غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرةَ ركعةً)).[120]

القِراءات ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ يَذْكُرَ على معنى: الذِّكرِ لله، وقيل: هي بمعنى يَذَّكَّرَ.[121]

وقال ابنُ عثيمين: (وأمَّا قولُه: أَوْ أَرَادَ شُكُورًا فـ (أو) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنى أن يجعلَ هذا قسيمًا للأوَّلِ، فتكونَ مانعةَ اجتماعٍ، أو هي مانعةُ خُلوٍّ؟ الجوابُ: مانعةُ خُلوٍّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أنَّه إذا وُجِدَ الأول امتنعَ الثاني، لكنْ مانعةُ الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجَدَ هذا أو هذا، أو هما.

لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا فهل يمكِنُ أن يجتَمِعا؟ نعَمْ؛ إذَنْ هي مانعةُ خُلوٍّ).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: 266).

(118) رواه مسلم (2759).

(119) رواه مسلم (747).

(120) رواه مسلم (746).

(121) قرأ بها حمزة، وخلَف.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (334/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (271/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 513)، ((الكشـف)) لمكِّي (147/2).

2– قراءةُ يَذَّكَّرَ أي: يتذكَّرَ ويتَّعِظَ، ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ.(122)

(122) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/334).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (17/489)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 513)، ((تفسير الشوكاني)) (4/99).

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (63–67)

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)
وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

غريب الكلمات:

هَوْنًا: أي: بالرِّفْقِ والسَّكينةِ والوَقارِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على سُكونٍ أو سَكينةٍ أو ذُلٍّ.

سَلَامًا: أي: سَدادًا مِن القَولِ ومَعروفًا، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ.

غَرَامًا: أي: دائِمًا لازِمًا، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ.

وَمُقَامًا: أي: إقامةً، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عن الدَّوامِ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ.

يَقْتُرُوا: يُضَيِّقوا ويَبخَلوا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ.

قَوَامًا: أي: وسَطًا وعَدلًا، والقَوامُ هو الشَّيءُ بينَ الشَّيئَيْنِ.

تفسير الآيات:

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يمشون بحِلْمٍ وسَكينةٍ، ووَقارٍ وتواضُعٍ، ورِفقٍ ولِينٍ، مِن غيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ وتجبُّرٍ،(123) وسَعيٍ للإفسادِ وارتكابِ المعاصي.(124)

---

(123) اختلف السلف في المراد بقوله: ﴿هونا﴾؛ فقيل: علماء حكماء.

وقيل: يمشون بوقار وسكينة.

وقيل: حلماء.

وقيل: يمشون بالطاعة والتواضع.

وقد جمع ابنُ جرير (١٧/ ٤٨٩) بين هذه الأقوال بقوله: «يقول -تعالى ذِكْرُه-: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ بالحلم والسكينة والوقار، غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله».

وقال ابنُ عطية (٦/ ٤٥٤): «وذهبت فرقة إلى أن ﴿هَوْنًا﴾ مرتبط بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ﴾، أي: المشي هو هون، ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هَوْنًا مناسبة لمشيه؛ فيرجع القول إلى نحو ما بيّناه.

وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رب ماش هَوْنًا رويدًا وهو ذئيب أطلس.

وقد كان رسول الله - ﷺ - يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبَب، وهو - عليه السلام - الصدر في هذه الآية».

(124) قال ابن كثير: (المرادُ بالهَونِ هاهنا السَّكينةُ والوقارُ، كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا أتيتُمُ الصَّلاةَ فلا تأتُوها وأنتم تَسْعَونَ، وأْتُوها وعليكم السَّكينةُ، فما أدركتُم فصَلُّوا، وما فاتَكم فأتِمُّوا»[البخاري (635)، ومسلم (603)]).

((تفسير ابن كثير)) (121/6، 122).

ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (161/1).

وقال ابنُ جُزي: (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، أي: رِفقًا ولينًا بحِلمٍ ووقارٍ، ويحتمِلُ أن يكون ذلك وَصْفَ مَشيِهم على الأرضِ، أو وصْفَ أخلاقِهم في جميعِ أحوالِهم، وعبَّرَ بالمَشيِ على الأرضِ عن جميعِ تصَرُّفِهم مدَّةَ حياتِهم).

((تفسير ابن جزي)) (86/2).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا أنَّه مدحٌ لِمشْيةٍ بالأرجُلِ، وهو الذي حمَل عليه جمهورُ المفسِّرينَ...

كما قال تعالى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا [الإسراء: 37].

وقال سُبحانَه: وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ [لقمان: 18، 19].

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا.

أي: وإذا خاطَبَ السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونَه، أجابوهم بقَولٍ سَدادٍ وصَوابٍ، ويَعفُون عنهم ويَصفَحون، فيَسْلَمون مِن الإثمِ، ومِن مُقابَلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومِن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم.(125)

[و] تقييدُ المشيِ بأنَّه على الأرضِ؛ لِيَكونَ في وَصفِه بالهَونِ ما يقتضي أنَّهم يَمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عندَ المشيِ في الصُّعُداتِ أو على الجنادِلِ.

((تفسير ابن عاشور)) (19/68).

وقيل: إنَّ قولَه: يَمْشُونَ عبارةٌ عن تصرُّفاتِهم في معاشرةِ النَّاسِ، وأنَّه ذكَر مِن ذلك المعظمَ، لاسيَّما وفي ذلك الانتقالِ في الأرضِ معاشرةُ الناسِ وخلطتُهم.

وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/218)، ((تفسير القرطبي)) (13/68).

وقال ابن عثيمين: (ثمَّ إنَّ هذا المَشيَ، هل هو المشيُ الحِسِّيُّ، أو يعُمُّ المشيَ الحسِّيَّ والمعنويَّ؟ الجوابُ: يَعُمُّهما جميعًا، حتَّى المشيَ المعنويَّ؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، وهذا مِن هَونِ المشيِ المعنويّ؛ أنَّهم إذا خاطَبَهم الجاهلون لا يتسَرَّعون فيقابلونَه بمِثلِ جَهلِه، ولكِنَّهم يقولون: سلامًا).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 271).

(125) في قوله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ قولان: الأول: أنه السداد من القول والمعروف.

الثاني: أنه قول: السلام عليكم.

وقد رجّح ابنُ القيم (٢/ ٢٦٥ بتصرف) القول الأول، وانتقد القول الثاني مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «فـ ﴿سلامًا﴾ هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه، أي: قالوا قولًا سلامًا، أي: سدادًا وصوابًا وسليمًا مِن الفحش والخنا».

ثم قال: «ولو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلَّموا عليهم، وليس هذا معنى الآية، ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يُقابِلون الجهلَ بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام، وقوله: ﴿الذين يمشون على الأرض هونا﴾ أي: بسكينة ووقار، فوصف مشيَهم بأنّه مشي حِلم ووقار وسكينة، لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نُطقَهم بأنّه سلامٌ؛ فهو نطق حلم وسكينة ووقار، لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة؛ فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية؛ فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه: سلام عليكم.

فتأمله».

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (493/17)، ((معاني القرآن)) للزجاج (74/4)، ((تفسير القرطبي)) (69/13)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (158/2)، ((تفسير ابن كثير)) (122/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 586)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة الفرقان)) (ص: 271).

قال ابنُ باديس: (سَلَامًا ...

مفعولٌ مطلقٌ، والتقديرُ: قالوا قولًا سلامًا، أي: ذا سلامٍ، فيشملُ كلَّ قولٍ فيه سلامةٌ مِن الأذى والمكروه؛ كسلام عليكم، ويغفرُ الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك.

أو...

مفعولٌ به، أي: قالوا هذا اللفظَ سَلَامًا نفْسَه).

((تفسير ابن باديس)) (ص: 195).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: رَدُّوا معروفًا، وأجابوا بالسَّدادِ مِن الخِطابِ، ولم يقولوا إلَّا خيرًا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ جُزي، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (240/3)، ((تفسير ابن جرير)) (493/17)، ((تفسير السمرقندي)) (544/2)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 783)، ((تفسير ابن جزي)) (86/2)، ((تفسير النسفي)) (547/2)، ((تفسير الخازن)) (318/3)، ((تفسير ابن كثير)) (122/6).

قال السعدي: (قَالُوا سَلَامًا أي: خاطَبوهم خِطابًا يَسْلَمون فيه مِنَ الإثمِ، ويَسلَمون مِن مُقابَلةِ الجاهلِ بجَهلِه.

وهذا مدحٌ لهم بالحِلمِ الكثيرِ، ومُقابَلةِ المُسيءِ بالإحسانِ، والعفوِ عن الجاهلِ، ورَزانةِ العقلِ الذي أوصلَهم إلى هذه الحالِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 586).

وممَّن اختار أنَّهم قالُوا هذا اللَّفظَ –أي: سلامًا–: ابنُ عطية، والثعالبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (218/4)، ((تفسير الثعالبي)) (217/4).

وقال القاسمي: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا أي: إذا خاطَبهم السُّفهاءُ بالقولِ السَّيِّئ لم يُقابِلوهم بمِثلِه، بل قالوا كلامًا فيه سلامٌ مِن الإيذاءِ والإثمِ؛ سواء كان بصيغةِ السلام، كقولهم: «سلامٌ عليكم»، أو غيرِها ممَّا فيه لُطفٌ في القولِ، أو عفوٌ أو صفحٌ، وكَظمٌ للغيظِ).

((تفسير القاسمي)) (436/7).

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هُمُ الذين يُصَلُّونَ في اللَّيلِ مُخلِصينَ لرَبِّهم، وهم في ذلك بيْنَ سُجودٍ وقِيامٍ.

كما قال تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا [السجدة: 16].

وقال سُبحانَه: أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ [الزمر: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [الذاريات: 16 - 18].

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ.

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى سَلَامًا أي: تسلُّمًا منكم لا نُجاهِلُكم، ومُتاركةً لا خيرَ بيْننا ولا شَرَّ: المُبَرِّدُ، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشربيني.

يُنظر: ((المقتضب)) للمبرِّد (219/3)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (74/4)، ((تفسير الزمخشري)) (291/3)، ((تفسير أبي السعود)) (228/6)، ((تفسير الشربيني)) (672/2).

وقال ابنُ عاشور: («السَّلامُ» يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى السَّلامةِ، أي: لا خيرَ بيْننا ولا شرَّ؛ فنحن مُسلَّمون منكم.

ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به لفظُ التحيَّة، فيكونَ مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو المتاركةُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ لفظِ السَّلامِ في التحيَّةِ أنَّه يؤذِنُ بالتأمينِ، أي: عدَمِ الإهاجةِ.

والتأمينُ: أوَّلُ ما يَلقى به المرءُ مَن يريدُ إكرامَه؛ فتكونُ الآيةُ في معنى قولِه: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [القصص: 55]).

((تفسير ابن عاشور)) (69/19).

أي: والذين يقولونَ خَوفًا وحَذَرًا مِن عَذابِ اللهِ: ربَّنا ادفَعْ عنَّا عذابَ جَهنَّمَ، بتَوفيقِنا للطَّاعاتِ، واجتِنابِ المعاصي، وتَكفيرِ السَّيِّئاتِ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج: 26 – 28].

إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا.

أي: إنَّ عذابَ جهنَّمَ مُلازِمٌ لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، مُهلِكٌ لهم.(126)

---

(126) قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: كَانَ غَرَامًا فيه خمسةُ أقوالٍ تتقارَبُ معانيها: أحدُها: دائمًا،...
والثاني: موجِعًا، رواه الضحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ.
والثالث: مُلِحًّا، قاله ابنُ السائبِ، وقال ابنُ جُرَيج: لا يفارِقُ.
والرابعُ: هلاكًا، قاله أبو عُبَيدة.
والخامسُ: أنَّ الغَرامَ في اللُّغةِ: أشَدُّ العذابِ...
قاله الزجَّاجُ).
((تفسير ابن الجوزي)) (3/327).
ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (2/80)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/75).
ممَّن اختار في الجملةِ أن غَرَامًا أي: ملازمًا كملازَمةِ الغَريمِ لغريمِه، مُلِحًّا، لازمًا، دائمًا، لا يفارِقُ صاحبَه: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والسمين الحلبيُّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/240)، ((تفسير السمرقندي)) (2/545)، ((تفسير الثعلبي)) (7/146)، ((تفسير السمعاني)) (4/30)، ((تفسير ابن عطية)) (4/219)، ((تفسير القرطبي)) (13/72)، ((تفسير البيضاوي)) (4/130)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (8/499)، ((تفسير ابن كثير)) (6/123)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 478)، ((تفسير السعدي)) (ص: 586)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/74)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة الفرقان)) (ص: 276).
وممَّن اختار أنَّ غَرَامًا أي: هلاكًا وخسرانًا مُلِحًّا لازمًا: الزمخشريُّ، والرازيُّ.

كما قال تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ [المائدة: 37].

وقال سُبحانَه: مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا [الإسراء: 97].

وقال عزَّ وجلَّ: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [الفرقان: 77].

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)

أي: إنَّ جهنَّمَ قَبُحت مَنزِلًا يَستقِرُّ فيه أهلُها، وبِئسَت موضِعَ إقامةٍ يَمكُثونَ فيها.(127)

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/292)، ((تفسير الرازي)) (24/481).
وقال ابن جرير: (غَرَامًا مُلِحًّا دائمًا لازمًا، غيرَ مفارقٍ مَن عُذِّب به مِن الكفَّارِ، ومُهلِكًا له).
((تفسير ابن جرير)) (17/495).
قال ابن عاشور: (وجملة: إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا يجوزُ أن تكونَ حكايةً مِن كلامِ القائلينَ، ويجوزُ أن تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى مُعترضةً بيْن اسمَي الموصول.
وعلى كلٍّ فهي تعليلٌ لسؤالِ صَرْفِ عذابِها عنهم.
والغرامُ: الهلاكُ المُلِحُّ الدَّائِمُ، وغلَب إطلاقُه على الشرِّ المستمِرّ).
((تفسير ابن عاشور)) (19/71).
(127) قال أبو حيان: (والظَّاهِرُ أن التَّعليلينِ غيرُ مترادفينِ؛ ذكرَ أوَّلًا لُزومَ عذابِها، وثانيًا مَساءةَ مكانِها، وهما متغايرانِ، وإن كان يلزمُ مِن لزومِ العذابِ في مكانٍ ذَمُّ ذلك المكانِ.
وقيل: هما مترادِفانِ، والظَّاهِرُ أنَّه مِن كلامِ الداعينَ وحكايةٌ لقولِهم.
وقيل: هو مِن كلامِ الله).
((تفسير أبي حيان)) (8/128).
وقال ابن عاشور: (جملة: إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا يجوزُ أن تكونَ حِكايةً لكلامِ القائلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتعليلِهم الأوَّلِ، وأن تكونَ مِن جانب الله تعالى دونَ التي قبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتعليلِ القائلينَ، وأن تكونَ مِن كلامِ الله مع التي قبْلَها؛ فتكونَ تكريرًا للاعتراضِ).
((تفسير ابن عاشور)) (19/71).
ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (8/500)، ((تفسير أبي السعود)) (6/229).

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا.

أي: والذين إذا أنفقوا أموالَهم على أنفُسِهم وأهليهم وغيرِهم، لم يُجاوِزوا الحَدَّ في إنفاقِها فيُبَذِّروا، ولم يُقصِّروا في النَّفَقةِ عن قَدرِ الحاجةِ فيَبخَلوا.[128]

---

(128) اختُلِفَ في تفسير قوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ على أقوال: الأول: أن الإسراف ما كان من نفقة في معصية الله.

والإقتار: المنع من حقوق الله.

الثاني: أن السرف: هو مجاوزة الحد في النفقة.

والإقتار: التقصير عن الحدِّ الذي لا بُدَّ منه.

الثالث: أنّ الإسراف هو أكل مال الغير بغير حق.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٧/ ٥٠١) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثاني، فقال: «والصواب من القول في ذلك قولُ مَن قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحدَّ الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه.

والإقتار: ما قصر عما أمر الله به.

والقوام: بين ذلك.

وإنما قلنا إن ذلك كذلك لأنّ المسرف والمقتر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصًا فيهما ما كانا مذمومين، ولا كان المسرف ولا المقتر مذمومًا؛ لأنّ ما أذن الله في فعله فغير مستحق فاعله الذم».

وانتقد ابنُ عطية (٦/ ٤٥٧ – ٤٥٨ بتصرف) مستندًا إلى ظاهر الآية القول الأول، وقول مَن قال: الإسراف: أن تنفق مال غيرك، فقال: «هذه الأقوال غير مرتبطة بلفظ الآية، وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر.

والوجه أن يُقال: إنّ النفقة في المعصية أمر قد حظرت الشريعة قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدّي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون مُنَزَّهون عن ذلك».

ثم رجّح أن «التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات وفي المباحات، فأدبُ الشرع فيها أن لا يُفَرِّط الإنسان حتى يضيع حقًّا آخر أو عيالًا ونحو هذا، وأن لا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشُّحّ، والحسن في ذلك هو القوام، أي: المعتدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخِفَّة ظهره وصبره وجلده على الكسب أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوسطها».

كما قال تعالى: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأعراف: 31].

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (497/17، 501)، ((تفسير ابن عطية)) (220/4)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (133/22، 134)، ((تفسير ابن كثير)) (123/6، 124)، ((تفسير السعدي)) (ص: 586)، ((تفسير ابن عاشور)) (71/19)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (75/6، 76).

قال ابن عطية: (الوجهُ أن يُقالَ: إنَّ النَّفَقةَ في المعصيةِ أمرٌ قد حظَرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مالِ الغيرِ، وهؤلاء الموصوفون منزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ بهذه الآيةِ هو في نفقةِ الطاعاتِ وفي المباحاتِ، فأدَبُ الشَّرعِ فيها ألَّا يُفَرِّطَ الإنسانُ حتى يضيِّعَ حَقًّا آخَرَ أو عيالًا ونحوَ هذا، وألَّا يضَيِّقَ أيضًا ويقتِّرَ حتى يُجيعَ العيالَ، ويُفرِطَ في الشُّحِّ).

((تفسير ابن عطية)) (220/4).

وقال السعدي: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا النفقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ لَمْ يُسْرِفُوا بأن يَزيدوا على الحدِّ فيَدخلوا في قسمِ التبذيرِ، وإهمالِ الحقوقِ الواجبةِ، وَلَمْ يَقْتُرُوا فيدخلوا في بابِ البخلِ والشُّحِّ).

((تفسير السعدي)) (ص: 586).

وقال ابن عاشور: (أُريدَ بالإنفاقِ هنا الإنفاقُ غيرُ الواجبِ، وذلك إنفاقُ المرءِ على أهلِ بيتِه وأصحابِه؛ لأنَّ الإنفاقَ الواجبَ لا يُذَمُّ الإسرافُ فيه، والإنفاقَ الحرامَ لا يُحمَدُ مُطلقًا بَلْهَ أن يُذَمَّ الإقتارُ فيه، على أنَّ في قولِه: إِذَا أَنْفَقُوا إشعارًا بأنَّهم اختاروا أن يُنفِقوا ولم يكُنْ واجبًا عليهم.

والإسرافُ: تجاوُزُ الحَدِّ الذي يقتضيه الإنفاقُ بحسَبِ حالِ المنفِقِ وحالِ المنفَقِ عليه).

((تفسير ابن عاشور)) (71/19).

وقال الشنقيطي: (واعلَمْ أنَّ أظهَرَ الأقوالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ مدَحَ عبادَه الصالحينَ بتوسُّطِهم في إنفاقِهم، فلا يجاوِزون الحدَّ بالإسرافِ في الإنفاقِ، ولا يقتُرون، أي: لا يُضَيِّقون فيَبخَلون بإنفاقِ القَدرِ اللازِمِ.

وقال بعضُ أهلِ العلمِ: الإسرافُ في الآيةِ: الإنفاقُ في الحرامِ والباطِلِ، والإقتارُ: منعُ الحقِّ الواجبِ.

وهذا المعنى وإن كان حقًّا فالأظهرُ في الآيةِ هو القَولُ الأوَّلُ...

والظَّاهِرُ أنَّ التوسُّطَ في الإنفاقِ الذي مدَحهم به شامِلٌ لإنفاقِهم على أهليهم، وإنفاقِهم المالَ في أوجُه الخيرِ).

((أضواء البيان)) (75/6، 76).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الإنفاقَ شامِلٌ للإنفاقِ على العيالِ والإنفاقِ في سبيلِ الله، وفي الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ، والإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ، وفي كُلِّ ما يكونُ إنفاقًا، قال: (لأنَّه لم يبيِّنِ المتعَلَّقَ، لم يقُلِ اللهُ: «أنفَقوا على عيالِهم»، بل أطلَق؛ فيشمَلُ كُلَّ ما أنفقوه؛ على العيالِ وعلى غيرِهم).

((تفسير ابن عثيمين– سورة الفرقان)) (ص: 279، 280).

وقال سُبحانَه: وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا [الإسراء: 26، 27].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا [الإسراء: 29].

وعن عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال في دعائه: ((وأسألُك القَصدَ[129] في الفَقرِ والغِنى)).[130]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((كُلوا واشرَبوا وتصَدَّقوا والبَسُوا، في غيرِ مَخِيلةٍ،[131] ولا سَرَفٍ)).[132]

وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا.

---

(129) أي: الاقتِصادَ والتوسُّطَ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1735/5).
(130) أخرجه النسائي (1305) واللفظ له، وأحمد (18325)، وابن حبَّان في ((صحيحه)) (1971).
وثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (333/2)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (1305).
(131) مَخِيلةٍ: أي: كِبرٍ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (93/2).
(132) أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزم قبلَ حديث (5783)، وأخرجه موصولًا النَّسائيُّ (2559) واللفظ له، وابن ماجه (3605)، وأحمد (6695).
حسَّنه ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (32)، وصحَّحه الهيتميُّ المكِّيُّ في ((الزواجر)) (35/2)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (272/4).

أي: وكان إنفاقُهم مُعتدِلًا وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ.[133]

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (68-71)

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)

---

(133) قال ابنُ عطية: (القَوامُ، أي: المعتَدِلُ، والقَوامُ في كلِّ واحدٍ بحسَبِ عيالِه وحالِه، وخِفَّةِ ظَهرِه، وصَبرِه وجَلَدِه على الكَسبِ، أو ضِدِّ هذه الخصالِ، وخيرُ الأمورِ أوسَطُها).
((تفسير ابن عطية)) (220/4).

غريب الكلمات:

أَثَامًا: أي: عُقوبةً ونَكالًا، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ، والإثمُ مشتقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه.

مُهَانًا: أي: ذليلًا مُبعَدًا، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذِلَّةٍ.

مَتَابًا: أي: رجوعًا، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ.

تفسير الآيات:

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68)

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّرْكِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا محمَّدًا – ﷺ – فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لحَسَنٌ، لو تخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كفَّارةً، فنزل: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، ونزلت: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ [الزمر: 53]).[134]

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

أي: والذين لا يَدْعون مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل يُخلِصون العبادةَ للهِ وحْدَه، ولا يُشرِكون به شَيئًا.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ، أو سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الذنبِ عند الله أكبَرُ؟ قال: أن تجعَلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ أن تقتُلَ ولَدَك خَشيةَ أن يَطعَمَ معك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانِيَ بحَليلةِ جارِك. قال: ونزلَت هذه الآيةُ تصديقًا لِقَولِ رَسولِ

(134) رواه البخاري (4810) واللفظ له، ومسلم (122).

اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ).[135]

وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

أي: ولا يَقتُلون مَن حرَّم اللهُ قَتْلَهم إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ يخوِّلُ قَتْلَهم.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ،[136] وحِسابُهم على اللهِ)).[137]

وَلَا يَزْنُونَ.

أي: ولا يقَعونَ في الزِّنا فيأتونَ الفَرْجَ الحرامَ بلا نِكاحٍ ولا مِلكِ يَمينٍ.

---

(135) رواه البخاري (4761) واللفظ له، ومسلم (86).

(136) إلَّا بحَقِّ الإسلامِ: أي: مِن قَتْلِ نَفْسٍ، أو حَدٍّ، أو غَرامةٍ بمُتْلَفٍ، أو تَركِ صَلاةٍ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (108/1).

(137) رواه البخاري (25) واللفظ له، ومسلم (22).

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا.

أي: ومَن يفعَلْ تلك الأفعالَ؛ مِن الشِّركِ باللهِ، وقَتلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ، والزِّنا- يجِدْ جزاءَه وعِقابَه في الآخرةِ.(138)

---

(138) اختلفت عبارات السلف في تفسير قوله: ﴿يلق آثاما﴾ على أقوال: الأول: أنه واد في جهنم.

الثاني: أنه بئر في جهنم.

الثالث: معنى ﴿أثامًا﴾: جزاء.

وقد ذكر ابنُ كثير (١٠/ ٣٢٦) هذه الأقوال، ثم رجّح القول الثالث مستندًا إلى السياق، فقال: «وقال السدي: ﴿يلق أثاما﴾: جزاء.

وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلًا منه، وهو قوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾».

ورجّح ابنُ جرير (١٧/ ٥٠٥ - ٥١٣ بتصرف) صحّة جميعها مستندًا إلى أقوال أهل التأويل: «﴿يلق أثاما﴾ يقول: يلق من عقاب الله عقوبة ونكالًا، كما وصفه ربنا -جل ثناؤه-، وهو أنه ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا﴾.

وبنحو الذي قلنا في الأثام مِن القول قال أهل التأويل، إلا أنهم قالوا: ذلك عقاب يعاقِب الله به مَن أتى هذه الكبائر بواد في جهنم يدعى: أثامًا».

[٤٧٦٣] ذكر ابنُ جرير (١٧/ ٥١٥) هذه القراءة وقراءة مَن قرأ ذلك بجزم ﴿يضاعف﴾ و﴿يخلد﴾، ورجّح مستندًا إلى اللغة قراءة الجزم فيهما بقوله: «والصواب مِن القراءة عندنا فيه جزم الحرفين كليهما: ﴿يضاعفْ﴾ و﴿يخلدْ﴾، وذلك أنه تفسير لـ» الأثام«، لا فعلٌ له، ولو كان فِعلًا له كان الوجه فيه الرفع، كما قال الشاعر:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فرفع «تعشو»؛ لأنه فعل لقوله: تأته.

معناه: متى تأته عاشيًا».

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (240/3)، ((تفسير ابن جرير)) (505/17)، ((تفسير ابن جزي)) (86/2)، ((تفسير ابن كثير)) (126/6)، ((تفسير الألوسي)) (48/10).

قال ابنُ عاشور: (المتبادِرُ مِن الإشارةِ أنَّها إلى المجموعِ، أي: مَن يفعَلْ مجموعَ الثلاث.

ويُعلَمُ أنَّ جزاءَ من يفعَلُ بعضَها ويترُكُ بعضًا عدا الإشراكِ: دونَ جزاءِ من يفعَلُ جميعَها، وأنَّ البعضَ أيضًا مراتِبُ، وليس المرادُ: من يفعلْ كُلَّ واحدةٍ ممَّا ذُكِرَ يلقَ أثامًا؛ لأنَّ لُقِيَّ الآثامِ بُيِّن هنا بمُضاعفةِ العذابِ والخلودِ فيه، وقد نَهَضت أدِلَّةٌ مُتظافِرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ على أنَّ ما عدا الكُفرَ من المعاصي لا يوجِبُ الخلودَ).

((تفسير ابن عاشور)) (74/19).

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69)

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: يُغلِّظِ اللهُ له عذابَه يومَ القيامةِ ويُكَرِّرْه.(139)

وممَّن قال بأنَّ الجزاءَ هنا على المجموعِ، أي: ما ذُكِر مِن الشِّركِ باللهِ، وقتلِ النفْسِ بغيرِ حقٍّ، والزِّنا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ جُزي، والقاسميُّ، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/240)، ((تفسير ابن جرير)) (17/505)، ((تفسير السمرقندي)) (2/545)، ((تفسير الثعلبي)) (7/148)، ((تفسير النسفي)) (2/549)، ((تفسير أبي حيان)) (8/130)، ((تفسير ابن جزي)) (2/86)، ((تفسير القاسمي)) (7/438)، ((تفسير الألوسي)) (10/48)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 291، 292).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (4/157)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (24/301).

وممن ذهب إلى أنَّ المرادَ: ومَن يفعَلْ شَيئًا ممَّا ذُكِر: مكِّي، والماوردي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (8/5258)، ((تفسير الماوردي)) (4/157)، ((تفسير البغوي)) (3/457)، ((تفسير الخازن)) (3/319)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 478)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/428)، ((تفسير الشوكاني)) (4/102)، ((تفسير السعدي)) (ص: 587).

قال البقاعي: (ولا يُقالُ: إنَّ الإشارةَ تَرجِعُ إلى المجموعِ؛ فالتهويلُ خاصٌّ بمَن ارتكَبَ مجموعَ هذه الذُّنوبِ؛ لأنَّا نقول: السِّياقُ يأباه؛ لأنَّ تَكرارَ «لا» أفاد -كما حقَّقه الرَّضيُّ- وُرودَ النَّفيِ على وقوعِ الخِصالِ الثلاثِ حالَ الاجتماعِ والانفرادِ، فالمعنى: لا يوقِعون شَيئًا منها، فكان معنى وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ: ومَن يفعَلْ شَيئًا من ذلك؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على ما ورد عليه النَّفيُ، فيحصُلَ التناسُبُ).

((نظم الدرر)) (13/428).

(139) قال الزمخشري: (إذا ارتكب المُشرِكُ معاصيَ مع الشِّركِ، عُذِّب على الشِّركِ وعلى المعاصي جميعًا؛ فتُضاعَفُ العقوبةُ لمُضاعَفةِ المعاقَبِ عليه).

((تفسير الزمخشري)) (3/294).

وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا.

أي: ويَبْقَ المُشرِكُ العاصي في العذابِ المُضاعَفِ إلى الأبَدِ ذَليلًا حَقيرًا.[140]

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70)

سَببُ النُّزولِ:

وقال ابن عثيمين: (إنما ضُوعِفَ له العذابُ لأنَّه فعَل ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وهي: الإشراكُ باللهِ، وقتلُ النفْسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأسبابَ إذا اجتمعَت صار لكلِّ واحدٍ منها أثَرُه، فمَن فعَل شيئًا واحدًا مِن الثلاثةِ فعليه إثمُه، ومَن فعَل اثنين فعليه إثمُهما، ومَن فعَل ثلاثًا فعليه إثمُهن.

فهذا وجْهُ التضعيفِ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 292).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (4/131)، ((تفسير ابن عاشور)) (19/74).

وقال البقاعي: (ومُضاعَفةُ العذابِ -واللهُ أعلمُ- إتيانُ بعضِه في إثرِ بَعضٍ بلا انقِطاعٍ، كما كان يُضاعِفُ سيِّئتَه كذلك).

((نظم الدرر)) (13/427).

(140) قال السعدي: (الوعيدُ بالخلودِ لمن فعلها كلَّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذا لمن أشرَك باللهِ، وكذلك الوعيدُ بالعذابِ الشديدِ على كلِّ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ؛ لكونِها إمَّا شركٌ وإما مِن أكبرِ الكبائرِ، وأمَّا خلودُ القاتلِ والزاني في العذابِ، فإنَّه لا يتناوَلُه الخلودُ؛ لأنَّه قد دلَّت النصوصُ القرآنيةُ والسنَّةُ النبويَّةُ أنَّ جميعَ المؤمنينَ سيخرجون من النارِ، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ ولو فعَل مِن المعاصي ما فعَل).

((تفسير السعدي)) (ص: 587).

وأيضًا قيل: يُرادُ مِن الخُلودِ المُكثُ الطويلُ الصادقُ بالخلودِ الأبديِّ وغيرِه، ويكونُ لِمَن أشرَك باعتبارِ فَردِه الأوَّلِ، ولِمَن ارتكب إحدى الكبيرتينِ الأخيرتينِ باعتبارِ فَردِه الآخرِ.

يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (10/49).

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((نزَلَت هذه الآيةُ بمكَّةَ: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا فقال المُشرِكون: وما يُغْني عنَّا الإسلامُ، وقد عدَلْنا باللهِ، وقد قتَلْنا النفسَ التي حرَّم اللهُ، وأتَيْنا الفواحِشَ؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)).[141]

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ.

أي: إلَّا مَن تاب مِن الشِّركِ وقتْلِ النَّفسِ المحرَّمةِ والزِّنا، فندِمَ على ذلك وأقلَعَ عنه، وآمَنَ بما وجب عليه الإيمانُ به، وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِرَسولِه- فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه ورَحمتِه.[142]

---

(141) رواه البخاري (3855)، ومسلم (3023) واللفظ له.

(142) قال ابن جرير: (قَوْلُهُ: فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ اختلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك؛ فقال بعضُهم: معناه: فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ، فيُبَدِّلُه بالشِّركِ إيمانًا، وبقِيلِ أهلِ الشِّركِ باللهِ قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا...

وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: فأولئك يبدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم في الدُّنيا حسناتٍ لهم يومَ القيامةِ).

((تفسير ابن جرير)) (17/516، 519).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ اللهَ يبدِّلُ سيِّئاتِهم حسناتٍ يومَ القيامةِ: الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحليُّ.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (7/150)، ((تفسير السمعاني)) (4/34)، ((تفسير البغوي)) (3/458)، ((تفسير ابن كثير)) (6/127)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 478).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سَلمانُ الفارسيُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، ومَكحولٌ، وعليُّ ابن الحسينِ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، والحسَنُ في روايةٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (519/17)، ((الوسيط)) للواحدي (347/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (330/3).

قال ابن كثير: (...

تلك السيِّئاتُ الماضيةُ تنقلِبُ بنفْسِ التَّوبةِ النَّصوحِ حسناتٍ، وما ذاك إلَّا أنَّه كُلَّما تذكَّر ما مضى نَدِم واسترجَع واستغفَر، فيَنقلِبُ الذنبُ طاعةً بهذا الاعتبارِ.

فيومَ القيامةِ وإنْ وجَده مكتوبًا عليه لكنَّه لا يضُرُّه، ويَنقلِبُ حسنةً في صحيفتِه، كما ثبتَت السُّنَّةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المَرويَّةُ عن السلَفِ رحمهم اللهُ تعالى).

((تفسير ابن كثير)) (127/6).

وقال السمعاني: (قال الحسَنُ البَصريُّ ومُجاهِدٌ وجماعةٌ: هذا في الدُّنيا.

ومعناه: تَبديلُ الكُفرِ بالإيمانِ، والشِّركِ بالإخلاصِ، والمَعصيةِ بالطَّاعةِ.

وقال سعيدُ بنُ المُسيِّبِ وجماعةٌ: هذا في الآخرة، واللهُ تعالى يُبدِّلُ سَيِّئاتِ التَّائبِ بالحسناتِ في صحيفته.

وقد ورد في القولِ الثاني خبرٌ صحيحٌ ...

عن أبي ذَرٍّ، أن النبيَّ قال: «يؤتَى بالمؤمِنِ يومَ القيامة فيُعرَضُ عليه صِغارُ ذنوبه، ويخبَّأُ عنه كِبارُها، فيُسألُ ويعترِفُ وهو مشفِقٌ من الكبائرِ، فيقولُ الله تعالى: أعطوه مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حَسنةً، فيقولُ: يا ربِّ، إنَّ لي ذنوبًا ولا أراها هاهنا؟ فضَحِك رسولُ الله حتى بدت نَواجِذُه».

أخرجه مسلم في صحيحه.

وعن أبي هريرة أنه قال: يُعطى المؤمنُ صَحيفتَه يومَ القيامةِ، فيَقرأُ بَعضَها وإذا هي سيِّئاتٌ، فإذا وصَل إلى الحَسَناتِ ينظُرُ نظرةً فيما قبْلَها، فإذا هي كلُّها صارت حسناتٍ.

وقد أنكر جماعةٌ مِن المتقدِّمينَ أن تنقَلِبَ السيِّئةُ حسنةً، منهم الحسنُ البصريُّ وغيرُه، وإذا ثبت الخَبَرُ عن النبيِّ لم يَبْقَ لأحدٍ كلامٌ).

((تفسير السمعاني)) (34/4).

وقال ابن القيم: (فهذا حديثٌ صحيحٌ، ولكِنْ في الاستدلالِ به على صِحَّةِ هذا القول نظَرٌ؛ فإنَّ هذا قد عُذِّب بسيِّئاته ودخَل بها النارَ، ثمَّ بعْدَ ذلك أُخرِجَ منها، وأُعطِيَ مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً، صَدقةً تصَدَّقَ اللهُ بها عليه ابتداءً بعددِ ذنوبه، وليس في هذا تبديلُ تلك الذنوبِ بحسناتٍ؛ إذ لو كان كذلك لَما عوقِب عليها كما لم يعاقَبِ التائِبُ، والكلامُ إنَّما هو في تائبٍ أُثبِتَ له مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةٌ، فزادت حسناتُه، فأين في هذا الحديثِ ما يدُلُّ على ذلك؟ والناسُ استقبَلوا هذا الحديثَ مستدِلِّينَ به في تفسيرِ هذه الآيةِ على هذا القولِ، وقد عَلِمتَ ما فيه، لكنْ للسَّلَفِ غَورٌ ودقَّةٌ فهمٍ لا يُدرِكُها كثيرٌ مِن المتأخِّرينَ.

فالاستدلالُ به صحيحٌ بعْدَ تمهيدِ قاعدةٍ إذا عُرِفت عُرِف لُطفُ الاستدلالِ به ودقَّتُه، وهي أنَّ الذنبَ لا بدَّ له مِن أثرٍ، وأثرُه يرتفِعُ بالتوبةِ تارةً، وبالحسناتِ الماحيةِ تارةً، وبالمصائبِ المكَفِّرةِ تارةً، وبدخولِ النَّارِ ليتخلَّصَ مِن أثرِه تارةً، وكذلك إذا اشتدَّ أثَرُه، ولم تَقْوَ تلك الأمورُ على محوِه، فلا بدَّ إذنْ مِن دخولِ النارِ؛ لأنَّ الجنةَ لا يكونُ فيها ذرَّةٌ مِن الخبيثِ، ولا يدخلُها إلَّا

مَن طاب مِن كلِّ وجهٍ، فإذا بقِيَ عليه شيءٌ مِن خَبَثِ الذُّنوبِ أُدخِلَ كِيرَ الامتحانِ؛ ليَخلُصَ ذهَبُ إيمانِه مِن خَبَثِه، فيصلُحَ حينئذٍ لدارِ المَلِكِ.

إذا عُلِمَ هذا فزوالُ موجبِ الذنبِ وأثرِه تارةً يكونُ بالتوبةِ النصوحِ، وهي أقوى الأسبابِ، وتارةً يكونُ باستيفاءِ الحقّ منه وتطهيرِه في النارِ، فإذا تطهَّر بالنارِ وزال أثرُ الوسَخِ والخَبَثِ عنه، أُعطيَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فإذا تطهَّر بالتوبةِ النصوحِ وزال عنه بها أثَرُ وسَخِ الذنوبِ وخَبَثِها، كان أَوْلى بأن يُعطى مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً؛ لأنَّ إزالةَ التوبةِ لهذا الوسخِ والخَبَثِ أعظمُ من إزالةِ النارِ، وأحبُّ إلى الله، وإزالةُ النَّارِ بَدَلٌ منها، وهي الأصلُ؛ فهي أَولى بالتبديلِ ممَّا بعْدَ الدخولِ).

((مدارج السالكين)) (310/1، 311).

وممَّن اختار أنَّ التَّبديلَ في الدُّنيا، وأنَّ المعنى: فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهم حَسَناتٍ، بنَقلِهم عمَّا يَسخَطُه اللهُ مِن الأعمالِ إلى ما يَرضى، ويكونُ ذلك سببًا لِرَحمتهم: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، السمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (240/3)، ((تفسير ابن جرير)) (519/17، 520)، ((تفسير السمرقندي)) (546/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (268/3)، ((الوسيط)) للواحدي (347/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 784)، ((تفسير ابن عطية)) (221/4).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ، وعطاءُ بن أبي رباح، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2733/8)، ((تفسير ابن الجوزي)) (330/3).

قال البغوي: (ذهَب جماعةٌ إلى أنَّ هذا التَّبديلَ في الدُّنيا.

قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، والضحَّاكُ: يُبَدِّلُهم اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ؛ فيُبَدِّلُهم بالشِّركِ إيمانًا، وبقَتلِ المؤمنينَ قَتلَ المُشركينَ، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا.

وقال قومٌ: يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم التي عَمِلوها في الإسلامِ حَسَناتٍ يومَ القيامةِ.

وهو قَولُ سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، ومَكحولٍ).

((تفسير البغوي)) (458/3).

وقال ابنُ القيم: (وأصلُ القولَينِ أنَّ هذا التبديلَ هل هو في الدنيا أو يومَ القيامةِ؟ فمَن قال: إنَّه في الدُّنيا؛ قال: هو تبديلُ الأعمالِ القبيحةِ والإراداتِ الفاسدةِ بأضْدادِها، وهي حَسَناتٌ، وهذا تبديلٌ حقيقةً ...

الصوابُ إن شاء الله في هذه المسألةِ أن يُقال: لا ريبَ أنَّ الذنْبَ نفْسَه لا ينقلِبُ حَسنةً، والحسنةُ إنَّما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهيَّاتِ إنَّما يُثابُ على كفِّ نفْسِه وحَبْسِها عن مُواقَعةِ المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو متعلَّقُ الثَّوابِ ...

وإذا كانت الحسَنةُ لا بدَّ أن تكونَ أمرًا وجوديًّا فالتَّائِبُ مِن الذُّنوبِ التي عَمِلها قد قارَنَ كلَّ ذَنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفْسَه عنه، وعَزَم على تركِ معاودتِه، وهذه حَسَناتٌ بلا ريبٍ، وقد محَتِ التوبةُ أثَرَ الذَّنبِ، وخَلَفَه هذا النَّدمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ قد بَدَّلت تلك السيِّئةَ حَسنةً...

فإذا كانت كلُّ سيئةٍ مِن سيِّئاتِه قد تاب منها فتوبتُه منها حسَنةٌ حلَّت مكانَها، فهذا معنى التَّبديلِ، لا أنَّ السيِّئةَ نفْسَها تنقلِبُ حسنةً.

وقال بعضُ المفسِّرينَ في هذه الآيةِ: يُعطيهم بالنَّدَمِ على كلِّ سيِّئةٍ أساؤوها حسنةً، وعلى هذا فقد زال -بحمدِ الله- الإشكالُ، واتَّضح الصَّوابُ، وظهَر أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الطائفتَينِ ما خرجت عن موجبِ العلمِ والحُجَّةِ.

وأمَّا حديثُ أبي ذَرٍّ -وإن كان التبديلُ فيه في حَقِّ المُصِرِّ الذي عُذِّب على سيِّئاته- فهو يدُلُّ بطَريقِ الأَولى على حصولِ التبديلِ للتائبِ المقلِعِ النادمِ على سيئاتِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ التي عُذِّب عليها المصِرُّ لَمَّا زال أثرُها بالعقوبةِ بَقِيَت كأنْ لم تكُنْ، فأعطاه اللهُ مكانَ كُلِّ سيئةٍ منها حسَنةً؛ لأنَّ ما حصَل له يومَ القيامةِ مِن النَّدَمِ المُفرِطِ عليها مع العُقوبةِ، اقتضى زوالَ أثرِها وتبديلَها حَسَناتٍ، فإنَّ النَّدَمَ لم يكُنْ في وقتٍ ينفَعُه، فلمَّا عوقِب عليها وزال أثَرُها بدَّلها اللهُ له حسناتٍ، فزوالُ أثَرِها بالتَّوبةِ النصوحِ أعظَمُ من زوالِ أثَرِها بالعُقوبةِ، فإذا بُدِّلت بعْدَ زوالِها بالعقوبةِ حَسَناتٍ فلأنْ تُبدَّلَ بعْدَ زوالِها بالتَّوبةِ حَسَناتٍ أَولى وأَحرى).

((طريق الهجرتين)) (ص: 245-250).

ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (1/310 - 312).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 587)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 306).

قال السعدي: (تتبدَّلُ أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مُستَعِدَّةً لعملِ السيِّئاتِ، تتبدَّلُ حَسَناتٍ، فيتبدَّلُ شِركُهم إيمانًا، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفْسُ السيِّئاتِ التي عمِلوها ثمَّ أحدَثوا عن كلِّ ذنْبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تُبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهِرُ الآيةِ، وورد في ذلك حديثُ الرجُلِ الذي حاسبه اللهُ ببعضِ ذنوبِه فعدَّدها عليه، ثم أُبدِلَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ، إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا.

واللهُ أعلمُ).

((تفسير السعدي)) (ص: 587).

وقال ابنُ عثيمين: (التبديل: جَعْلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَريٌّ أو تبديلٌ جزائيٌّ؟ اختلَف في ذلك أهلُ العِلمِ؛ فمِنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ قَدَريٌّ، ومنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الذين يقولون: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ يقولون: إنَّ معنى تبديلِ السَّيِّئاتِ حَسَناتٍ أنَّه لَمَّا آمَن وعَمِل عملًا صالحًا صار بدَلَ الشِّركِ إيمانٌ، وصار بدَلَ الزنا وقَتلِ النَّفسِ عمَلٌ صالحٌ، معناه: أنَّ هذا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ صار بدلًا عن الكُفرِ والزِّنا وقتلِ النَّفسِ، فالمعنى أنَّ إيمانَه وعملَه الصَّالحَ الذي فعَلَه هو الحَسَناتُ التي أبدَلَ اللهُ السيِّئاتِ بها؛ فيكونُ هذا التبديلُ قدَريًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أن هذه المعاصيَ نفْسَها تكونُ حَسَناتٍ، يُبدِّلُ اللهُ السيِّئاتِ السابقةَ يجعَلُها حسَناتٍ، بالإضافةِ إلى حَسَناتِه الأخيرةِ التي قُدِّرت له ففعَلَها، وكيف ذلك؟ يقولون: لأنَّ هذه السيِّئاتِ لَمَّا تاب منها صار له بكلِّ توبةٍ مِن هذه السيِّئاتِ حَسَنةٌ، فأُبدِلت السيِّئاتُ حَسَناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنَّه كلَّما تذكَّر ما سبَق مِن أعمالِه السيِّئةِ أحدَث لها توبةً؛ فصارت هذه الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها.

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها: رجُلٌ يؤتَى به يومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلت يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعَمْ، لا يَستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سَيِّئةٍ حَسَنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رأيتُ رَسولَ الله – ﷺ – ضَحِك حتى بَدَت نَواجِذُه)).[143]

وعن أبي طويلٍ شَطبٍ الممدودِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه أتى رسولَ الله – ﷺ – فقال: ((أرأيت رجُلًا عَمِلَ الذُّنوبَ كُلَّها، فلم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجةً ولا داجةً[144] إلَّا أتاها، فهل له مِن توبةٍ؟ قال: فهل أسلَمْتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّك رَسولُ الله،

والصحيحُ شُمولُ الآيةِ لهذا ولهذا، وأنَّ الآيةَ شاملةٌ للأمرينِ؛ فإنَّ مَن تاب وآمَن وعَمِل عملًا صالحًا تبدَّلت سيئاتُه السابقةُ فصارت حسناتٍ، لكنَّها ليست هي الأُولى نفْسَها، وكذلك إذا تاب منها جُوزِيَ على هذه التوبةِ بالثَّوابِ؛ فصارت السيِّئاتُ بالتَّوبةِ منها حَسَناتٍ).

((تفسير ابن عثيمين– سورة الفرقان)) (ص: 305، 306).

(143) رواه مسلم (190).

(144) حاجَةً ولا داجَةً: أي: ما ترَكْتُ شَيئًا دعَتْني إليه نَفْسي إلَّا رَكِبْتُه مِن الذُّنوبِ.

وداجةً: في هذا الموضِعِ: إتْباعٌ.

وقيل: الدَّاجَةُ: ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له، أي: قد قَضَيتُ الحوائجَ التي لها مَوقِعٌ مِن قلبي، وقَضَيتُ ما لا يُذكَرُ؛ احتقارًا له.

يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (410/1)، ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) للأنباري (227/2)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (506/2).

قال: نعَمْ، تفعَلُ الخَيراتِ، وتَترُكُ السيِّئاتِ، فيَجعلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كُلَّهنَّ، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟!

قال: نعَمْ، قال: اللهُ أكبَرُ! فما زال يُكبِّرُ حتى توارى)).[145]

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

أي: ولم يَزَلِ اللهُ يستُرُ ذُنوبَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها ويَرحَمُهم.

كما قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر: 53].

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)

أي: ومَن تاب إلى اللهِ وعَمِلَ بعْدَ توبتِه الأعمالَ الصَّالحةَ، فإنَّه يَرجِعُ إلى اللهِ رُجوعًا صَحيحًا حَسَنًا، مَقبولًا مَرضِيًّا.

---

(145) أخرجه ابن أبي عاصـــم في ((الآحاد والمثاني)) (2718)، والبزَّار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (36/1)، والطبراني (314/7) (7235).

جوَّد إسنادَه وقوَّاه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (128/4)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (144): حسنٌ صحيحٌ غريب.

وصحَّحه الألباني في ((الترغيب والترهيب)) (3164).

قال ابن حَجر: (قال البغويُّ: أظنُّ أنَّ الصوابَ عن عبد الرحمن بن جُبَيرٍ أنَّ رجُلًا أتى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم طويلًا شَطبًا، والشَّطبُ يعني في اللغة: الممدودَ، يعني: فظنَّه الراوي اسمًا، فقال فيه: عن شَطبٍ أبي طويلٍ).

((الإصابة في تمييز الصحابة)) (283/3).

ويُنظر: ((معجم الصحابة)) للبغوي (323/3)، ((الاستيعاب)) لابن عبد البر (709/2).

كما قال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 110].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 104].

سورةُ الفُرقانِ

الآيات (72-77)

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

غريب الكلمات:

الْغُرْفَةَ: أي: الدَّرَجةَ الرَّفيعةَ في الجنَّةِ، والغرفةُ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ، وأصلُ (غرف): يدُلُّ على رَفعِ الشَّيءِ.

قُرَّةَ أَعْيُنٍ: أي: ما تَقَرُّ به أعْيُننا، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البرَدِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ اللهُ عينَه، أي: أنامَها.

وَيُلَقَّوْنَ: أي: يُستقبَلونَ، وتَتَلَقَّاهُم الملائكةُ، يُقال: تَلَقَّاهُ كذا، أي: لَقِيَه، ولَقِيتُه بكذا: إذا استَقْبلتَه به، وأصلُ (لقي) هنا يدُلُّ على المُلاقاةِ، وتوافي شيئيْنِ متقابلَيْنِ.

يَعْبَأُ: أي: يُبالي، وأصلُ (عبأ): يدُلُّ على اجتماعٍ في ثِقلٍ.

لِزَامًا: أي: مُلازِمًا، وقيل: جَزاءً، وقيل: هلاكًا، وأصلُ (لزم): يدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ للشَّيءِ دائِمًا.

تفسير الآيات:

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72)

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ.

أي: والذين لا يَحضُرون شَيئًا مِن الباطِلِ،[146] ويجتنبونَ جميعَ المجالِسِ المشتمِلةِ على أقوالٍ أو أفعالٍ محرَّمةٍ.[147]

---

(146) للسلف في معنى الزور أقوال: فقيل: هو الشِّرك بالله تعالى.

وقيل: هو الغِناء.

وقيل: هو الكذب.

وقيل: أعياد الكافرين.

وقيل غير هذا كما في الآثار.

وقد ذكر ابنُ جرير (١٧/ ٥٢٣) الأقوال الثلاثة الأولى، ثم رجّح مستندًا للغة والعموم أنّ اللفظة عامةٌ في كل باطل، فيدخل فيها الشرك والغناء والكذب، وغير هذا من معاني الباطل، فقال: «وأصل الزور: تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى مَن يسمعه أو يراه أنّه خلاف ما هو به، والشِّرك قد يدخل في ذلك؛ لأنه محسَّنٌ لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء؛ لأنه أيضًا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعُه سماعَه، والكذب أيضًا قد يدخل فيه؛ لتحسين صاحبه إيّاه، حتى يظن صاحبُه أنّه حقٌّ، فكلُّ ذلك مِمّا يدخل في معنى الزور.

فإذا كان ذلك كذلك فأَوْلى الأقوال بالصواب في تأويله أن يُقال: والذين لا يشهدون شيئًا مِن الباطل؛ لا شركًا، ولا غناء، ولا كذبًا، ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛ لأنّ الله عمَّ في وصفه إيّاهم أنّهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص مِن ذلك شيء إلا بحُجَّة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل».

وبنحوه ابنُ عطية (٦/ ٤٦٢)، حيث قال: «والزُّور: كل باطل زُوِّر وزُخرِف، فأعظمه الشرك، وبه فسر الضحاك وابن زيد، ومنه الغناء، وبه فسر مجاهد، ومنه الكذب، وبه فسَّر ابن جريج».

وبنحوهما ابنُ القيم (٢/ ٢٧٠).

وظاهرٌ أن الآثار الواردة هنا مبنية على أن ﴿يشهدون﴾ في الآية مأخوذ من المشاهدة، وهو ما رجّحه ابنُ القيم (٢/ ٢٧١) وابنُ كثير (١٠/ ٣٣١)، فقال ابنُ كثير مستندًا إلى السياق: «والأظهر من السياق أنّ المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾، أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مروا كراما﴾».

وقد أورد ابنُ عطية قولًا آخر أن ﴿يشهدون﴾ مأخوذٌ من الشهادة، فقال: «وقال علي بن أبي طالب ومحمد بن علي المعنى: لا يشهدون بالزور، فهو من الشهادة لا مِن المشاهدة، والزور: الكذب».

ثم علّق عليه بقوله: «والشاهد بالزور: حاضره ومؤديه فجرةٌ».

ثم علّق على القولين بقوله: «فالمعنى الأول أعمُّ، لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى».

(147) قال ابن عاشـور: (فِعلُ «شَـهِد» يُسـتعملُ بمعنى «حضَـر»، وهو أصـلُ إطلاقِه؛ كقولِه تعالى: فَمَنْ شَـهِدَ مِنْكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُـمْهُ [البقرة: 185]، ويُستعملُ بمعنَى: أخبَرَ عن شَيءٍ شَهِدَه وعَلِمَه؛ كقولِه تعالى: وَشَـهِدَ شَـاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا [يوسف: 26].

والزُّورُ: الباطلُ مِن قَولٍ أو فعلٍ، وقد غلَب على الكذِبِ...

فيَجوزُ أن يكونَ معنَى الآيةِ: أنَّهم لا يَحضُـرونَ مَحاضـرَ الباطلِ الَّتي كان يَحضُـرُها المشـركون، وهي مَجالسُ اللَّهوِ والغِناءِ والغِيبةِ ونَحوِها، وكذلك أعيادُ المشركين وألعابُهم؛ فيكونَ الزُّورُ مفعولًا به لـ يَشْهَدُونَ.

وهذا ثَناءٌ على المؤمنينَ بمُقاطَعةِ المشركينَ وتجنُّبِهم...

ويجوزُ أن يكونَ فِعلُ يَشْـهَدُونَ بمعنَى الإخبارِ عمَّا عَلِموه، ويكونَ الزُّورُ منصـوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لا يَشـهَدون بالزُّورِ، أو مفعولًا مُطلقًا لبيانِ نوعِ الشَّهادةِ، أي: لا يَشهدون شهادةً هي زُورٌ لا حقٌّ).

((تفسير ابن عاشور)) (19/78، 79).

وقال ابن الفَرَس: (الزُّورُ: كلُّ الباطلِ، فأعظَمُه: الشِّركُ، وبه فسَّرَ الضحَّاكُ وابنُ زَيدٍ.

ومنه: الغِناءُ، وبه فسَّر مجاهِدٌ.

ومنه: الكذِبُ، وبه فسَّر ابنُ جُرَيجٍ.

ويَشْـهَدُونَ على القولينِ الأوَّلَينِ مِنَ المُشـاهَدةِ، وعلى القولِ الثالثِ مِنَ الشَّـهادةِ لا مِن المشـاهَدةِ، فالمُرادُ: الشَّـهادةُ بالزُّورِ، وهو قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وغيرِه).

((أحكام القرآن)) (3/400).

ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: 198).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الشِّركُ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ أبي زمنين، والسمعانيُّ، والخازنُ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/242)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/268)، ((تفسير السمعاني)) (4/35)، ((تفسير الخازن)) (3/319).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرين.

يُنظر: ((البسيط)) (16/601).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الكذِبُ: أي: لا يَشهدون بالزُّورِ أو شهادةَ الزُّورِ: ابنُ جُزي، وأبو حيان.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (2/87)، ((تفسير أبي حيان)) (8/132).

قال ابن تيميَّةَ: (قال قومٌ: إنَّ المُرادَ: شَـهادةُ الزُّورِ الَّتي هي الكذبُ، وهذا فيه نظَرٌ؛ فإنَّه تعالى قال: لَا يَشْـهَدُونَ الزُّورَ، ولم يقُلْ: لا يَشهدون بالزُّورِ.

والعربُ تقولُ: شهِدتُ كذا: إذا حضَرْتَه...

وأمَّا: شَهِدتُ بكذا، فمعناه: أخبرتُ به).

((اقتضاء الصراط المستقيم)) (1/482).

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأنعام: 68].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال: ألَا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادةُ الزُّورِ أو قَولُ الزُّورِ، وكان رسولُ اللهِ - ﷺ - مُتَّكِئًا فجلَسَ، فما زال يُكَرِّرها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ)).(148)

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لا يَشهدون شَيئًا مِن الباطلِ؛ لا شِركًا، ولا غِناءً، ولا كَذِبًا ولا غيرَه مِن الباطلِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والثعالبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/523)، ((تفسير ابن عطية)) (4/222)، ((تفسير القرطبي)) (13/79)، ((تفسير الثعالبي)) (4/220).

قال السعدي: (أي: لا يحضرون الزُّورَ، أي: القولَ والفِعلَ المحَرَّمَ، فيجتنبون جميعَ المَجالسِ المشتَمِلةِ على الأقوالِ المحرَّمةِ أو الأفعالِ المحرَّمةِ...

وإذا كانوا لا يَشهَدون الزُّورَ فمِن بابِ أَولى وأَحرى ألَّا يقولوه ويفعلوه، وشهادةُ الزُّورِ داخلةٌ في قَولِ الزورِ، تدخُلُ في هذه الآيةِ بالأولويَّةِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 587).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/295)، ((تفسير ابن عاشور)) (19/78، 79).

وقال ابن عثيمين: (فالزُّورُ: كُلُّ مَيلٍ قوليٍّ أو فعليٍّ؛ إن كان قولًا وُصِف بالكَذِب، وإن كان فِعلًا وُصِف بالباطِلِ.

فكلُّ قولٍ أو فعلٍ مائلٍ عن الطريقِ فإنَّه زورٌ؛ فالكَذِبُ زورٌ، والشَّتمُ واللَّعنُ والغِيبةُ زورٌ أيضًا، والغَصبُ والسَّرِقةُ والزِّنا وغيرُ ذلك: زورٌ أيضًا، لكن قد نُسَمِّيه باطلًا إذا كان فِعلًا).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 315).

وقال السيوطي: (قوله تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ هو شامِلٌ لكُلِّ باطلٍ؛ فمِنه الشِّركُ، وبه فسَّره الضحَّاكُ، واللَّهوُ والغناءُ، وبه فسَّر ابنُ الحنفيَّةِ، والكَذِبُ، وبه فسَّر قَتادةُ، والنِّياحةُ، وبه فسَّر الحسَنُ).

((الإكليل)) (ص: 198).

(148) رواه البخاري (6919)، ومسلم (87) واللفظ له.

وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا.

أي: وإذا صادَف أنْ مَرُّوا باللَّغوِ(149) فسَمِعوه أو رَأَوْهُ -مِن غيرِ قَصدٍ منهم-، أعرَضوا عنه، وأكرَموا أنفُسَهم عن الخَوضِ والمشاركةِ فيه.(150)

---

(149) قال السعدي: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه، ولا فيه فائِدةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ؛ ككلامِ السفهاءِ ونحوِهم).

((تفسير السعدي)) (ص: 587).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (79/19)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (79/6).

وقال ابن جُزي: (اللَّغوُ: هو الكلامُ القبيحُ على اختِلافِ أنواعِه).

((تفسير ابن جزي)) (87/2).

وقال ابن عثيمين: (قولُه: وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ اللَّغوُ الصوابُ أنَّه ليس الكلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكلامَ القبيحَ داخِلٌ في الزُّورِ، لكنِ المُرادُ باللَّغوِ: ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فيه فهو لَغْوٌ؛ وذلك لأنَّه لا يُقصَدُ، وما لا يُقصدُ فهو لَغْوٌ، لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ [المائدة: 89] ، فاللَّغوُ ما لا فائدةَ فيه؛ سواءٌ كان قولًا أو فعلًا).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 316).

وقيل في معنى اللَّغوِ أيضًا: هو ما كان المشركونَ يَقولونَه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمونَهم به مِن الأَذَى، وقيل: اللَّغوُ هو ما كان المشركونَ فيه مِن الباطِلِ، وقيل: هو المعاصي كُلُّها...

إلى غيرِ ذلك.

قال ابنُ جريرٍ بعْدَ أن ذكَر الخلافَ في معنَى اللَّغو: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أخبَرَ عن هؤلاءِ المؤمنينَ الَّذين مَدَحهم بأنَّهم إذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كرامًا، واللَّغوُ في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فِعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبَحُ...

فلا وجهَ إذْ كان كلُّ ذلك يَلْزَمُه اسمُ اللَّغْوِ أن يُقالَ: عُنِيَ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ، إذ لم يَكُنْ لخصوصِ ذلك دَلالةٌ مِن خبرٍ أو عقلٍ).

((تفسير ابن جرير)) (523/17- 525).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ اللَّغوَ: كلُّ ما يَنبغي أن يُلغى ويُطَّرَح، وكلُّ سَقَطٍ مِن قولٍ أو فعلٍ: الزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (77/4)، ((تفسير الزمخشري)) (295/3)، ((تفسير ابن عطية)) (222/4)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (400/3)، ((تفسير الرازي)) (486/24)، ((تفسير القرطبي)) (80/13)، ((تفسير البيضاوي)) (131/4)، ((تفسير النسفي)) (551/2)، ((تفسير الخازن)) (320/3)، ((تفسير الشوكاني)) (103/4)، ((تفسير القاسمي)) (444/7).

كما قال تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [القصص: 55].

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73)

---

(150) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ على أربعة أقوال: الأول: أن اللغو هو ما كان المشركون يقولونه للمؤمنين، ويكلمونهم به من الأذى.

ومرورهم به كرامًا إعراضهم عنهم وصفحهم.

الثاني: كانوا إذا ذكروا النكاح كنَوا عنه.

الثالث: أنهم إذا مروا بإفك المشركين ينكرونه.

الرابع: أن اللغو المعاصي كلها.

وقد رجّح ابن جرير (١٧/ ٥٢٥) مستندًا إلى اللغة والعموم جميعَها، فقال: «واللغو في كلام العرب: هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح؛ فسبُّ الإنسانِ الإنسانَ بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الأماكن، فهو مِن اللغو، وكذلك تعظيمُ المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه إذ كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو أن يُقال: عُنِي به بعض ذلك دون بعض.

إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل».

وبنحوه ابنُ عطية (٦/ ٤٦٢ – ٤٦٣) مستندًا إلى عموم اللفظ، فقال: «واللغو: كل سقط من فعل أو قول، يدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك، ويدخل في ذلك سفه المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النساء، وغير ذلك من المنكر».

أي: والذين إذا ذكَّرهم مُذَكِّرٌ بآياتِ ربِّهم،[151] لم يُقابِلوها بالإعراضِ عنها، والصَّمَمِ عن سَماعِها، وصَرفِ النَّظَرِ والقلوبِ عنها،[152] كالكُفَّارِ الذين إن ذُكِّروا بها أنكَروا وكَذَّبوا، وأقاموا على كُفرِهم، كأنَّهم لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ.[153]

---

(151) قيل: المرادُ بقولِه: بِآيَاتِ رَبِّهِمْ: القرآنُ.

وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والنسفيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (242/3)، ((تفسير السمرقندي)) (547/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (268/3)، ((تفسير ابن عطية)) (222/4)، ((تفسير القرطبي)) (81/13)، ((تفسير النسفي)) (551/2).

وقيل: المرادُ بها: عمومُ الآياتِ، شَرعيَّةً كانت أو كونيَّةً.

وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 322).

وقال الشوكاني: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ أي: بالقرآنِ، أو بما فيه موعظةٌ وعِبرةٌ).

((تفسير الشوكاني)) (104/4).

(152) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٦٣) أن قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيانًا﴾ يحتمل تأويلين: الأول: أن يكون المعنى: لم يكن خرورهم بهذه الصفة، بل يكون سجدًا وبكيًّا.

ثم وجّهه بقوله: «وهذا كما تقول: لم يخرج زيد للحرب جزعًا.

أي: إنما خرج جريئًا مقدمًا».

الثاني: هو أن يخروا صمًّا وعميانًا هي صفة للكافر، وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك.

ثم علّق عليه بقوله: «وكان المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر؛ فإذا أعرض وضلّ كان ذلك خرورًا، وهو السقوط على غير نظام ولا ترتيب، وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجدًا، ولكن أصله أنه على غير ترتيب».

وقال ابنُ جرير (١٧/ ٥٢٨) موجّهًا معنى الآية: «فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿يخروا عليها صما وعميانا﴾؟ أوَيَخِرُّ الكافرون صمًّا وعميانًا إذا ذُكِّروا بآيات الله، فينفي عن هؤلاء ما هو صفة للكفار؟! قيل: نعم، الكافر إذا تُلِيَت عليه آيات الله خرَّ عليها أصم وأعمى، وخره عليها كذلك إقامته على الكفر، وذلك نظير قول العرب: سببت فلانًا فقام يبكي.

بمعنى: فظلَّ يبكي، ولا قيام هنالك، ولعله أن يكون بكى قاعدًا، وكما يقال: نهيت فلانًا عن كذا، فقعد يشتمني.

ومعنى ذلك: فجعل يشتمني، وظل يشتمني، ولا قعود هنالك، ولكن ذلك قد جرى على ألسن العرب، حتى قد فهموا معناه».

(153) قال الزمخشري: (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ليس بنَفيٍ للخُرورِ، وإنَّما هو إثباتٌ له، ونَفيٌ للصَّمَمِ والعَمَى، كما تقولُ: لا يَلقاني زيدٌ مُسلِّمًا، هو نفيٌ للسَّلامِ لا لِلِّقاءِ.

كما قال سبحانه وتعالى: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [السجدة: 15].

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)

والمعنى: أنَّهم إذا ذُكِّرُوا بها أكَبُّوا عليها حِرصًا على استِماعِها، وأقبَلوا على المُذَكِّرِ بها، وهُم في إكبابِهم عليها سامِعون بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرونَ بعُيونٍ راعيةٍ، لا كالذين يُذَكَّرونَ بها فتراهم مُكِبِّينَ عليها مُقبِلينَ على مَن يُذَكِّرُ بها، مُظهِرينَ الحِرصَ الشَّديدَ على استِماعِها، وهم كالصُّمِّ العُميانِ؛ حيث لا يَعُونَها، ولا يتبَصَّرونَ ما فيها، كالمُنافِقينَ وأشباهِهم).

((تفسير الزمخشري)) (295/3).

وقال ابن عطية: (قولُه: لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا يحتَمِلُ تأويلينِ: أحدُهما: أن يكونَ المعنى: لم يكُنْ خرورُهم بهذه الصِّفةِ، بل يكون سُجَّدًا وبُكِيًّا، وهذا كما تقولُ: لم يخرجْ زيدٌ للحربِ جَزِعًا، أي: إنما خرَج جريئًا مُقْدِمًا.

وكأنَّ الذي يَخِرُّ أصَمَّ وأعمى هو المنافِقُ أو الشاكُّ.

والتأويلُ الثاني ذهب إليه الطبريُّ، وهو: أنَّ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا هي صِفةٌ للكافِرِ، وهي عبارةٌ عن إعراضِهم وجهدِهم في ذلك، وقَرَنَ ذلك بقولِه: قعَد فلان يشتُمُني، وقام فلانٌ يبكي، وأنت لم تَقصدِ الإخبارَ بقعودٍ ولا قيامٍ، وإنما هي توطئاتٌ في الكلامِ والعبارة).

((تفسير ابن عطية)) (222/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (528/17).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الخرورُ واقِعًا منهم أو مِن بَعضِهم حقيقةً؛ لأنَّهم يكونون جلوسًا في مجتمعاتِهم ونَواديهم، فإذا دعاهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ طأطؤوا رؤوسَهم وقرَّبوها مِن الأرض؛ لأنَّ ذلك للقاعد يقومُ مقامَ الفِرارِ، أو سَترِ الوجهِ...

وقريبٌ مِن هذا المعنى قولُه تعالى حكايةً في سورة نوح: وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا [نوح: 7]).

((تفسير ابن عاشور)) (80/19، 81).

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ.

أي: والذين يَدْعُونَ اللهَ قائلينَ: ربَّنا أصلِحْ أزواجَنا وأولادَنا وأحفادَنا، فنُسَرَّ في الدُّنيا برُؤيتِهم على طاعتِك، وفي الآخرةِ بدُخولِ جَنَّتِك.(154)

(154) قال ابن العربي: (معناه: أنَّ النفوسَ تتمنَّى، والعيونَ تمتدُّ إلى ما ترى مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ، حتى إذا كانت عندَه زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه مِن جمالٍ وعِفَّةٍ ونظرٍ وحَوطةٍ، أو كانت عندَه ذريَّتُه محافِظينَ على الطاعة، معاوِنينَ له على وظائفِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لم يلتفِتْ إلى زوجِ أحدٍ، ولا إلى ولَدِه؛ فتسكُنُ عينُه عن الملاحظةِ، وتزولُ نفْسُه عن التعلُّقِ بغيرِها؛ فذلك حينَ قُرَّةِ العَينِ، وسُكونِ النَّفسِ).

((أحكام القرآن)) (3/455، 456).

ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (4/36)، ((تفسير القرطبي)) (13/82).

لكن قال الرازي: (لا شُبْهَةَ أنَّ المرادَ أنْ يكونَ قُرَّةَ أعينٍ لهم في الدِّينِ لا في الأمورِ الدُّنيويَّةِ مِن المالِ والجمالِ).

((تفسير الرازي)) (24/486).

وقال الزمخشري: (مِنْ في قولِه: مِنْ أَزْوَاجِنَا ...

يحتمِلُ أن تكونَ بيانيَّةً...

وأن تكونَ ابتدائيَّةً).

((تفسير الزمخشري)) (3/296).

وقال أبو حيان: (قُرَّةُ العينِ فيمَنْ ذكروا رُؤْيَتُهم مُطيعينَ لِلَّهِ).

((تفسير أبي حيان)) (8/133).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/222).

وقال الرازي: (فيه وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم سألوا أزواجًا وذرِّيَّةً في الدُّنيا يُشارِكونهم، فأحَبُّوا أن يكونوا معهم في التمسُّكِ بطاعةِ الله، فيَقْوى طمَعُهم في أن يحصُلوا معهم في الجنَّةِ؛ فيتكامَلَ سرورُهم في الدُّنيا بهذا الطمعِ، وفي الآخرةِ عندَ حصولِ الثَّوابِ.

والثَّاني: أنَّهم سألوا أن يُلحِقَ اللهُ أزواجَهم وذريَّتَهم بهم في الجنَّةِ؛ لِيَتِمَّ سرورُهم بهم).

((تفسير الرازي)) (24/486، 487).

وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا.

أي: واجعَلْنا قُدوةً للذين يمتَثِلونَ أوامِرَك، ويجتَنِبونَ نواهيَك، فيَقتَدون بنا في الخَيرِ.(155)

---

(155) اختُلِف في تفسير قوله: ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾؛ فقال بعضهم: معناه: اجعلنا أئمة هدىً يقتدي بنا مَن بعدنا.

وقال آخرون: اجعلنا نأتم بالمتقين قبلنا: نأتم بهم، ويأتم بنا من بعدنا.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٧/ ٥٣٣) مستندًا إلى ظاهر الآية القول الأول، وعلّل ذلك بقوله: «لأنهم إنما سألوا ربهم أن يجعلهم للمتقين أئمة، ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إمامًا».

وعلّق ابنُ عطية (٦/ ٤٦٤ بتصرف) على القول الأول، فقال: «و﴿إماما﴾ قيل: هو مفرد اسم جنس، أي: اجعلنا يأتم بنا المتقون، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقيًا قدوة، وهذا هو قصد الداعي، قال إبراهيم النخعي: لم يطلبوا الرياسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين.

وهذا حسن أن يطلب ويسعى له».

وقال ابنُ القيم (٢/ ٢٧٢ – ٢٧٣): «إمام بمعنى: قدوة، وهو يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة، وقد قيل: هو جمع آمم، كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، وتاجر وتجار، وقيل: هو مصدر، كقتال وضراب، أي: ذوي إمام، والصواب الوجه الأول، فكل مَن كان من المتقين وجب عليه أن يأتم بهم، والتقوى واجبة، والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للائتمام بهم».

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (533/17)، ((تفسير القرطبي)) (83/13)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (81/1)، ((تفسير ابن كثير)) (133/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 587).

ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أي: يقتدون بنا في الدِّينِ، ويأتمون بنا في الخَيرِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (242/3)، ((تفسير ابن جرير)) (533/17)، ((تفسير السمرقندي)) (547/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (269/3)، ((تفسير الثعلبي)) (152/7)، ((تفسير البغوي)) (459/3)، ((تفسير القرطبي)) (83/13)، ((تفسير البيضاوي)) (132/4)، ((تفسير النسفي)) (552/2)، ((تفسير ابن جزي)) (87/2)، ((تفسير الخازن)) (320/3)، ((تفسير الشوكاني)) (104/4).

قال ابن كثير: (وقولُه: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ: أئمَّةً يُقتدى بنا في الخيرِ).

((تفسير ابن كثير)) (133/6).

قال السعدي: (من المعلومِ أنَّ الدُّعاءَ بحُصولِ شَيءٍ: دُعاءٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدَّرَجةُ دَرَجةُ الإمامةِ في الدِّينِ التي لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ واليَقينِ، كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السجدة: 24] ، فهذا

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السجدة: 24].

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75)

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا.

الدُّعاءُ يَستلزِمُ مِن حُصولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، ومن العِلمِ النَّافِعِ التامِّ الرَّاسخِ الذي يُوصِلُ صاحِبَه إلى درجةِ اليَقينِ- خَيرًا كثيرًا، وعَطاءً جزيلًا).

((تيسير اللطيف المنان)) (ص: 67).

وقيل: معنى: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا: نأتَمُّ بهم، ويأتَمُّ بنا مَن بَعْدَنا.

وممَّن قال به مِن السلَفِ: مجاهِدٌ، والحسَنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (532/17)، ((تفسير السمعاني)) (36/4).

وعن مجاهدٍ -في روايةٍ أخرى-، قال: (اجعَلْنا مؤتَمِّينَ بهم، مُقتَدينَ بهم).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (532/17).

قال ابنُ القيِّمِ عن تفسيرِ مجاهدٍ المذكورِ: (أَشكَلَ هذا التفسيرُ على مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ فَهمِ السلَفِ وعُمقَ عِلمِهم، وقال: يجبُ أن تكونَ الآيةُ على هذا القولِ مِن بابِ المقلوبِ، على تقديرِ: واجعَلِ المتَّقينَ لنا أئمَّةً، ومَعاذَ اللهِ أن يكونَ شَـــيءٌ مقلوبًا على وَجهِه! وهذا مِن تمامِ فَهمِ مجاهدٍ رحمه اللهُ؛ فإنَّه لا يكونُ الرجُلُ إمامًا للمتَّقينَ حتى يأتَمَّ بالمتَّقينَ، فنَبَّهَ مجاهدٌ على هذا الوجهِ الَّذي يَنالون به هذا المطلوبَ، وهو اقتِداؤُهم بالسلَفِ المتَّقينَ مِن قَبْلِهم، فيَجعَلُهم اللهُ أئمَّةً للمتَّقينَ مِن بَعدِهم.

وهذا مِن أحسَنِ الفَهمِ في القرآنِ وألطَفِه، ليس مِن بابِ القلبِ في شَيءٍ، فمَنِ ائتَمَّ بأهلِ السنَّةِ قبْلَه، ائتَمَّ به مَن بعْدَه ومَن معه).

((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: 12، 13).

أي: عِبادُ الرَّحمنِ المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يُثيبُهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجنَّةِ[156]؛ بسبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا.[157]

كما قال تعالى: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [الزمر: 20].

---

(156) قيل: الغرفةُ: المنزلةُ الرَّفيعةُ، والدرجةُ العاليةُ في الجنَّةِ.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ، وجلال الدين المحليُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/534)، ((تفسير الثعلبي)) (7/153)، ((تفسير البغوي)) (3/460)، ((تفسير الخازن)) (3/320)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 479)، ((تفسير الشوكاني)) (4/105)، ((تفسير القاسمي)) (7/446).
وقال الزمخشري: (المرادُ: يُجْزَوْنَ الغُرُفاتِ، وهي العَلاليُّ في الجنَّةِ، فوَحَّدَ اقتِصارًا على الواحِدِ الدالِّ على الجنسِ، والدَّليلُ على ذلك قولُه: وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ [سبأ: 37]).
((تفسير الزمخشري)) (3/296).
ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (4/132)، ((تفسير النسفي)) (2/552).
وقال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ المرادَ بالغُرفةِ في هذه الآيةِ الكريمةِ جِنسُها الصادِقُ بغُرَفٍ كثيرةٍ).
((أضواء البيان)) (6/81).
وقيل: هي الجنَّةُ.
وممَّن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ، وقال: (قال أبو جعفرٍ الباقِرُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بذلك؛ لارتِفاعِها).
((تفسير ابن كثير)) (6/133).
قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ فيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الغُرفةَ الجنَّةُ، قاله الضحَّاكُ.
الثَّاني: أنَّها أعلى مَنازِلِ الجنَّةِ وأفضَلُها، كما أنَّ الغُرفةَ أعلى مَنازِلِ الدُّنيا).
((تفسير الماوردي)) (4/161).
(157) قال القرطبي: (أُولَئِكَ خبرُ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ»...
وما تخَلَّل بيْن المبتدأِ وخبَرِه أوصافُهم مِن التحلِّي والتخلِّي، وهي إحدى عَشْرةَ: التواضُعُ، والحِلمُ، والتهجُّدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّركِ والزِّنا والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّبُ الكَذِبِ، والعفوُ عن المسيءِ، وقَبولُ المواعظِ، والابتهالُ إلى اللهِ).
((تفسير القرطبي)) (13/83).

وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا.

أي: ويُستقبَلُ عِبادُ الرَّحمنِ في الغُرَفِ بالتحيَّةِ والسَّلامِ عليهم.(158)

كما قال عزَّ وجلَّ: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ [الأحزاب: 44].

وقال تعالى: وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد: 23، 24].

---

(158) قال البغوي: (وقوله: تَحِيَّةً، أي: مُلْكًا.
وقيل: بقاءً دائمًا، وَسَلَامًا أي: يُسلِّمُ بعضُهم على بعضٍ.
وقال الكَلْبيُّ: يُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، ويُرسِلُ الرَّبُّ إليهم بالسَّلامِ.
وقيل: سلامًا: أي سلامةً مِنَ الآفاتِ).
((تفسير البغوي)) (3/460).
وقال البقاعي: (فِيهَا تَحِيَّةً أي: دُعاءً بالحياةِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ومِن الملائكةِ الذين لا يُرَدُّ دعاؤُهم، ولا يُمترى في إخبارِهم؛ لأنَّهم عن الله يَنطِقون، وذلك على وجهِ الإكرامِ والإعظامِ مكانَ ما أهانَهم عبادُ الشيطان.
وَسَلَامًا أي: مِن الله، ومِن الملائكة وغيرِهم، وسلامةً مِن كلِّ آفةٍ مكانَ ما أصابوهم بالمصائبِ).
((نظم الدرر)) (13/437).
وقال السعدي: (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا مِن ربِّهم، ومِن ملائكتِه الكرامِ، ومِن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميعِ المنَغِّصاتِ والمكدِّراتِ).
((تفسير السعدي)) (ص: 588).
وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: تَحِيَّةً وَسَلَامًا هل هما مُترادِفان أو مُتغايران؟ التحيَّةُ أعمُّ؛ فكُلُّ سلامٍ تحيَّةٌ، ثم أيضًا التحيَّةُ كما تكونُ بالقَولِ تكونُ بالفعلِ؛ ولهذا يُقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبطِيبِ المنزِلِ، وما أشبَهَ ذلك.
قولُه: تَحِيَّةً وَسَلَامًا يعني: أنَّهم يُلَقَّونَ بالتحيَّةِ قولًا، وبالسلامةِ بقاءً، يعني: يبقَون سالمين، وهذه المعاني ثابتةٌ بالنِّسبةِ لأهلِ الجنةِ؛ فإنَّهم يُحَيَّون بأنواعِ التحياتِ المَرْضيَّةِ المُفرِحةِ المسِرَّةِ، وكذلك أيضًا يَسلَمونَ من كلِّ الآفاتِ...
يُحيِّي بعضُهم بعضًا، ويحيِّيهم الله سبحانه وتعالى، وكذلك الملائكةُ).
((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 340).

وقال سُبحانَه: تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [إبراهيم: 23].

وقال تبارك وتعالى: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس: 58].

وقال جلَّ جلالُه: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: 25، 26].

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)

خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: ماكِثِينَ في الغُرَفِ، لا يموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها.

حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا.

أي: حَسُنَت تلك الغُرَفُ قرارًا لأهلِها، ومكانَ إقامةٍ لهم.(159)

---

(159) قال أبو منصور: (حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا): تأويلُه -واللهُ أعلم- أي: حَسُنت لهم الجنَّةُ مُستقَرًّا ومُقامًا؛ حتى لا يَمَلُّوا فيها ولا يَسْأموا، ولا تأخُذَهم الوحشةُ والكآبةُ؛ كَنعيمِ الدُّنيا يُمَلُّ ويُسأَمُ عندَ الكثرةِ وطُولِ المُقامِ).

((تفسير الماتريدي)) (47/8).

وقال ابن كثير: (قوله: حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا أي: حسُنت منظرًا، وطابت مَقِيلًا ومنزِلًا).

((تفسير ابن كثير)) (133/6).

وقال القاسمي: (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا؛ لسَلامةِ أهلِها عن الآفاتِ، وخلودِهم أبَدَ الآبادِ).

((تفسير القاسمي)) (446/7).

وقال ابن عثيمين: (المستَقَرُّ باعتبارِ المكانِ، والمُقامُ باعتبارِ ما يحصُلُ لهم مِن النعيمِ والسرورِ والتحيَّةِ وغيرِ ذلك، تقولُ: مُقامي فيكم سرورٌ، أو مُقامي في هذا المكان حُزنٌ، أو ما أشبَهَ ذلك.

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا77))

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ.

ويمكنُ أيضًا أن يُقالَ: المقامُ بالنِّسبةِ للزمنِ، يعني: أنَّ اللهَ أثنى عليها مكانًا وزمنًا، وكَوْننا نُحاوِلُ أن يكونَ بينَ اللفظينِ تغايرٌ أَولى مِن الترادُفِ؛ لأنَّنا إذا قُلْنا بالترادُفِ في هذا وغيرِه صار في المسألةِ تكرارٌ، والأصلُ عدمُ التَّكرارِ؛ فحاوِلْ ما استطعْتَ أن تجعلَ اللَّفظينِ متغايرينِ إذا أمكَنَ في كلِّ آيةٍ في آياتِ القرآنِ، وغيرِ القرآنِ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 341، 342).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أُرسِلتَ إليهم: لولا دُعاؤُكم إيَّاه[160] لَمَا بالى، ولا اكترَث بكم.[161]

---

(160) اختلفت عبارات السلف في التعبير عن قوله: ﴿لولا دعاؤكم﴾ على أقوال: الأول: لولا إيمانكم.

الثاني: لولا دعاؤكم إيّاه.

الثالث: لولا عبادتكم إيّاه.

الرابع: لولا دعاؤه إيّاكم لتعبدوه.

الخامس: ما يعبأ ربي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة وشركاء.

السادس: لولا أدعوكم إلى الإسلام فتستجيبون لي.

ولم يذكر ابنُ تيمية (٥/ ٣٣ - ٣٤) من هذه الأقوال سوى القول الثاني، والقول الرابع، ورجّح الثاني بقوله: «وهو الأرجح من القولين».

ثم قال مُعَلِّقًا: «وعلى هذا فالمراد به نوعي الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر، أي: ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه، وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه».

ورجّح ابنُ القيم (٢/ ٢٧٤) القول الثالث، فقال: «وأصح الأقوال في الآية: أنّ معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم إياه، فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته».

ولم يذكر مستندًا.

قال ابنُ عطية (٦/ ٤٦٤ - ٤٦٥): «وقوله: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾ الآية أمرٌ لمحمد - ﷺ - أن يخاطب بذلك، و﴿ما﴾ تحتمل النفي، وتحتمل التقرير، والكلام في نفسه يحتمل تأويلات: أحدها: أن تكون الآية إلى قوله: ﴿لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾ خطابًا لجميع الناس، فكأنه قال لقريش منهم: أي: ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم، لولا عبادتكم إياه -إن لو كانت- إذ ذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله.

قال تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُون﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال النقاش وغيره: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك فذلك هو عُرْف الناس المَرْعِيُّ فيهم، وقرأ ابن الزبير وغيره: (فَقَدْ كَذَّبَ الكافِرُونَ)، وهذا يؤيد أنّ الخطاب بما يعبأ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتم، ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب والتكذيب الذي هو سبب العذاب لزامًا.

والثاني: أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة، أي: ما يَعْبَؤُا بكم ربِّي لولا دعاؤكم الأصنامَ آلهةً دونه؛ فإن ذلك يوجب تعذيبكم.

والثالثة: وهو قول مجاهد، أي: ما يعبأ ربكم بكم لولا أن دعاكم إلى شرعه، فوقع منكم الكفرُ والإعراض.

والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول، وفي الأولين مضاف إلى الفاعل».

(161) قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختلَفوا في المصدَرِ في قَولِه: لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ: هل هو مُضافٌ إلى فاعِلِه، أو إلى مَفعولِه، وعلى أنَّه مُضافٌ إلى فاعِلِه فالمخاطَبونَ بالآيَةِ داعُونَ لا مَدْعُوُّونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له.

وأمَّا على أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى مَفعولِه فالمُخاطَبونَ بالآيةِ مَدْعُوُّونَ لا داعُونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى توحيدِه وعبادتِه على ألْسِنَةِ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ).

((أضواء البيان)) (6/81).

وممَّن اختار أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: لولا أنَّكم تَدْعونَه: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وأبو السعود، والسعديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/535، 536)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (10/238) و (27/433)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (3/3)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (2/83)، ((تفسير ابن كثير)) (6/134)، ((تفسير أبي السعود)) (6/232)، ((تفسير السعدي)) (ص: 588).

قال الشنقيطي: (أشهَرُ الأقوالِ وأكثَرُها قائِلًا، وهو أنَّ المعنى: لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له وحْدَه...

واعلَمْ أنَّ قَولَ مَن قال: لولا دعاؤُكم، أي: دعاؤُكم إيَّاي لأغفِرَ لكم، وأُعطيَكم ما سألتُم: راجِعٌ إلى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ دُعاءَ المسألةِ داخِلٌ في العبادةِ، كما هو معلومٌ).

((أضواء البيان)) (6/83).

وقال ابنُ القيم في قولِه تعالى: دُعَاؤُكُمْ: (المرادُ به نوعَا الدُّعاءِ، وهو في دُعاءِ العبادةِ أظهرُ، أي: ما يَعْبَأُ بكم لولا أنَّكم تَعبدونه، وعِبادَتُه تَستلْزِمُ مسألَتَه؛ فالنَّوعانِ داخِلانِ فيه).

((بدائع الفوائد)) (3/3).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (15/12).

وقال السعدي: (لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ إيَّاه دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 588).

وقال الشنقيطي: (وعلى هذا القولِ فالخِطابُ عامٌّ للكافرينَ والمؤمنينَ، ثُمَّ أفرَد الكافرينَ دونَ المؤمِنينَ بقولِه: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ... الآيةَ).

((أضواء البيان)) (6/82).

وذكَر الشنقيطي قولينِ آخَرينِ مبنيَّينِ أيضًا على كونِ المصدرِ مُضافًا إلى فاعِلِه: الأول: أنَّ المعنَى: لولا دُعاؤُكم أيُّها الكفَّارُ له وحْدَه عندَ الشَّدائِدِ والكروبِ، أي: ولو كنتُم تَرجِعونَ إلى شِرْكِكم، إذا كَشَفَ الضُّرَّ عنكم.

وممَّن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وأنَّ المرادَ دعاؤُهم عندَ الشدائِدِ: جلال الدين المحليُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: 479)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 345).

الثاني: أنَّ معنَى مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي، أي: ما يصنَعُ بعذابِكم، لولا دُعاؤُكم معه آلِهةً أُخرى.

وقال عن هذا القولِ الأخيرِ: (ولا يخفَى بُعْدُ هذا القولِ، وأنَّ فيه تقديرَ ما لا دليلَ عليه، ولا حاجةَ إليه).

((أضواء البيان)) (6/82).

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا.

وقيل: إنَّ المصدرَ في قولِه: دُعَاؤُكُمْ مُضافٌ إلى مفعولِه، فالمخاطَبونَ بالآيةِ مَدعُوُّونَ، فالمعنى: ما يصنَعُ بكم ربِّي لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى الإيمانِ به وتوحيدِه وعبادتِه.

وممَّن قال بذلك: الفرَّاءُ، وابنُ العربي، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (2/275)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (3/430)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/81 - 85).

وقال البقاعي: (أي: أيُّها الكافِرون...

لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ أي: نداؤُكم له في وقتِ شدائدِكم الذي أنتم تبادِرونَ إليه فيه؛ خضوعًا له به ليُنجيَكم، فإذا فعلتُم ذلك أنقَذكم مما أنتم فيه؛ معاملةً لكم معاملةَ مَن يبالي بالإنسانِ، ويعتدُّ به ويُراعيه، ولولا دعاؤُه إيَّاكم لتَعبُدوه؛ رحمةً لكم؛ لِتَزكُوا أنفسُكم، وتَصْفوا أعمالُكم، ولا تكونوا حطبًا للنارِ).

((نظم الدرر)) (13/438).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: 344، 345).

أي: فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكونَ- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم[162] في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم.[163]

---

(162) للسلف في تفسير قوله: ﴿لزاما﴾ أربعة أقوال: الأول: أنّ اللزام: عذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر.

الثاني: أنه الموت.

الثالث: أنه القتال.

الرابع: أنه العذاب في الآخرة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٧/ ٥٣٧) مستندًا إلى أقوال السلف القولَ الأول، فقال: «وقوله: ﴿فقد كذبتم﴾، يقول -تعالى ذِكْرُه- لمشركي قريش قومِ رسول الله - ﷺ -: فقد كذبتم -أيها القومُ- رسولَكم الذي أُرْسِل إليكم، وخالفتم أمر ربكم الذي أمَرَ بالتمسك به، لو تمسكتم به كان يعبأ بكم ربي، فسوف يكون تكذيبكم رسول ربكم وخلافكم أمر بارئكم عذابًا لكم مُلازمًا؛ قتلًا بالسيوف وهلاكًا لكم مُفنيًا يلحق بعضكم بعضًا.

ففعل الله ذلك بهم، وصدقهم وعده، وقتلهم يوم بدر بأيدي أوليائه، وألحق بعضهم ببعض، فكان ذلك العذابُ اللزامَ».

وقال ابنُ عطية (٦/ ٤٦٥): «وأكثر الناس على أنّ» اللزام «المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر، وهو قول أبي بن كعب، وابن مسعود، والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب».

ثم علّق على القول الثاني، فقال: «وقال ابن عباس أيضًا: اللزام: الموت.

وهذا نحو القول ببدر، وإن أراد به متأول الموت المعتاد في الناس عرفًا، فهو ضعيف».

ورجّح ابنُ كثير (١٠/ ٣٣٥) أنّه لا مُنافاة بين القولين، فقال: «﴿فسوف يكون لزاما﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعني: مُقْتَضِيًا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يومُ بدر، كما فسّره بذلك عبدُ الله بن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: ﴿فسوف يكون لزاما﴾ يعني: يوم القيامة.

ولا منافاة بينهما».

(163) قال ابن جُزي: (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا أي: سوف يكونُ العذابُ لِزامًا ثابتًا، وأضمَرَ العَذابَ، وهو اسمُ كان؛ لأنَّه جزاءُ التَّكذيبِ المتقَدِّمِ).

((تفسير ابن جزي)) (87/2).

وقال البيضاوي: (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ لازِمًا يَحِيقُ بكم لا مَحالةَ، أو أثَرُه لازِمًا بكم حتى يَكُبَّكم في النَّارِ).

((تفسير البيضاوي)) (132/4).

وقال ابنُ جرير: (يكونُ تَكذيبُكم رَسولَ رَبِّكم، وخِلافُكم أمرَ بارِئِكم: عَذابًا لكم مُلازِمًا).

((تفسير ابن جرير)) (537/17).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (خمسٌ قد مَضَيْنَ: الدُّخَانُ، والقَمَرُ، والرُّومُ، والبَطشةُ، واللِّزامُ[164] فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا).[165]

وقال القرطبي: (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا أي: يكونُ تكذيبُكم مُلازِمًا لكم.
والمعنى: فسوف يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ...
وحَسُنَ إضمارُ التكذيبِ؛ لتقدُّمِ ذِكرِ فِعلِه؛ لأنَّك إذا ذكَرْتَ الفِعلَ دَلَّ بلَفظِه على مَصْدَرِه).
((تفسير القرطبي)) (85/13).
وقال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل يُرادُ بالعَذابِ هنا القَتلُ يومَ بَدرٍ، أو عذابُ الآخرةِ؟).
((تفسير ابن جزي)) (87/2).
وقال القرطبي: (جمهورُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ باللِّزامِ هنا: ما نَزَل بهم يومَ بَدرٍ، وهو قَولُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وأبي مالِكٍ، ومجاهِدٍ، ومُقاتِلٍ، وغَيرِهم).
((تفسير القرطبي)) (85/13).
وقال ابنُ كثير: (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا أي: فسوف يكونُ تكذيبُكم لِزامًا لكم، يعني: مُقتَضِيًا لهلاكِكم وعَذابِكم ودمارِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ويَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ، كما فَسَّره بذلك عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم.
وقال الحَسَنُ البَصريُّ: فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا يعني: يومَ القيامةِ.
ولا مُنافاةَ بَينَهما).
((تفسير ابن كثير)) (134/6).
(164) الدُّخانُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ [الدخان: 10].
والقَمَرُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: 1].
والرُّومُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: الم * غُلِبَتِ الرُّومُ [الروم: 1، 2].
والبَطْشةُ: المشارُ إليها في قَولِه جَلَّ وعَلَا: يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى [الدخان: 16]، وهو القَتلُ يومَ بَدرٍ.
واللِّزامُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا).
قيل: يَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ.
وقيل: يعني: يَومَ القيامةِ؛ لأنَّه لتحقُّقِ وقوعِه عُدَّ ماضيًا.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (277/7).
(165) رواه البخاري (4767) واللفظ له، ومسلم (2798).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ العِشرونَ

ويَليه المجلَّدُ الحادي والعِشرونَ، وأوَّلُه: تفسيرُ سُورةِ الشُّعَراءِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا